الإسلام ومشكلات الحضارة

سيد قطب

دار الشروق

الإسلام ومشكلات الحضارة



بَيروت : ص.ب : ٦٤-٨ هَاتف : ٢٢٣٨٣٨ بَرقيًا : داشروق
القَاهرَة : ١٦ شارع جوَاد حسنى هَاتف : ٥١٢١٤ برقيًا : شروق القاهرة

سيد قطب

الإسلام ومشكلات الحضارة

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

تدمير الإنسان

الحياة الإنسانية ـ كما هى سائرة اليوم وكما هى صائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة ـ لا يمكن أن تستمر فى طريقها هذا ، ولا بد لها من تغيير أساسى فى القاعدة التى تقوم عليها . تغيير يعصمها من تدمير « الإنسان » ذاته ، بتدمير خصائصه الأساسية . فالحياة الإنسانية ـ بداهة ـ لا تستطيع أن تبقى إذا ما دمرت خصائص « الإنسان » .

وخط الحياة الحالى يمضى يوما بعد يوم فى تدمير خصائص الإنسان ؛ وتحويله إلى آلة من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى . . وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد ؛ وإذا كانت آثار هذه النهاية لم تتضح اتضاحا كاملا . . فالذى ظهر منها حتى اليوم ، فى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، يشى بتناقص الخصائص الإنسانية وضمورها وتراجعها ، بقدر ما يشى بنمو الخصائص الآلية والحيوانية فيها وتضخمها وبروزها . .

. . وهذا يكفى . .

يكفى لتقرير أن خط الحياة الحالى يمضى يوما بعد يوم فى تدمير خصائص الإنسان ، ولتقرير أن الحياة الإنسانية لا يمكن ـ إذن ـ أن تمضى مع هذا الخط إلى نهايته . . مالم يكن مقررا تدميرها نهائيا . . والأمل فى رحمة الله يمنع من توقع هذا المصير البائس ، ويوجه توقعاتنا إلى ناحية أخرى : ناحية تجنب الإنسانية ـ بفطرتها وطبيعتها ، وبعوامل الحدس والحذر والاحتياط الكامنة فى كيانها ـ لهذا المصير البائس ، بالتحول عن طريق

الخطر فى الوقت المناسب . واختيار خط آخر وطريق آخر . والتغلب على هذه الأزمة التى يجد « الإنسان » فيها نفسه على حافة الهاوية . وهو مندفع إليها بعنف ، وهو فى الوقت ذاته لا يملك الخيار ، لأن عوامل كثيرة تكاد تفقده قوة الاختيار !

وفى كل مرة كانت الحياة « الإنسانية » والخصائص « الإنسانية » مهددة تهديدا مدمرا ماحقا ، وقع التحول ـ بطريقة خفية ، كثيرا ما كانت مجهولة الأسباب فى حينها ـ وتجنبت البشرية ذلك الدمار « الإنسانى » . أما فى هذه المرة فالتهديد أشد من كل ما عرفته البشرية من قبل من كل أنواع التهديدات .

ولقد كان الكثيرون عقدوا آمالهم فى هذا التغيير على « الماركسية » . على المادية الجدلية ، وعلى التفسير الاقتصادى للتاريخ . . ولكن هذا لم يكن إلا وهما . فالماركسية ـ مع التفسير المادى الجدلى للتاريخ ـ لا تمثل إلا دفعة فى خط الدمار ذاته . وليست تحولا أصلا . لا فى طبيعة الخط ولا فى اتجاهه . . إنها القمة التى يصل إليها الخط المادى فى التفكير ، والآلية المادية فى تصور وتكييف الحياة البشرية . .

كذلك يتجلى فشل كل المحاولات الأخرى ، التى يراد بها وضع « أيديولوجية » جديدة ، تجد فيها البشرية غناء ، وتجد فيها مخرجا من الأزمة الحادة التى انتهت إليها ، فكلها أفكار جزئية سطحية ؛ وكلها محاولات مصطنعة لا جذور لها فى الفطرة البشرية !

وحين نتلفت من حولنا فى الماضى والحاضر ، وفى المستقبل كذلك ، لا نجد الحل المقترح لتجنيب البشرية ذلك الدمار ، وللخروج بها من هذه الأزمة الحادة ؛ وللاحتفاظ « بالإنسان » عن طريق الاحتفاظ بخصائصه الإنسانية ـ احتفاظا ناميا متجددا ـ إلا فى التصور الإسلامى ، والمنهج الإسلامى ، والحياة الإسلامية ،والمجتمع الإسلامى .

ومن ثم نعتقد أن قيام المجتمع الإسلامى ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية . وأنه إذا لم

يقم اليوم فسيقوم غدا ، وإذا لم يقم هنا فسيقوم هنـاك . ليعصم البشرية من « تدمير الإنسان » عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، ومن تدمير الحيـاة الإنسـانيـة التى لا تقوم بغير إنسان محتفظ بخصائصه الإنسانية ، فى حالة نماء وارتقاء .

* * *

ولـكن كيف تبدو الحياة الإنسانية مهددة بتدمير الإنسـان عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، فى ظل الحضارة القائمة ، وعلى امتداد الخط الذى تسير فيه الحياة الإنسانية اليوم ـ بصفة عامة ـ الأمر الذى يجعل قيام المجتمع الإسلامى ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ؟

لعله يحسن أن نـكشف عن أهم عناصر هذه المأساة فى اختصار . .

إن أهم عناصر هذه المأساة تتمثل فى :

١ ـ جهلنا المطبق بالإنسان ـ على الرغم من سعة علمنا نسبيا بالمـادة ، وبطرائق التصنيع المادية ، القائمة على أصول فنية راقية ـ ومن ثم عدم استطاعتنا أن نضع له ـ من عند أنفسنا ـ نظاما شاملا لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعا فى حالة تجدد ونمو وازدهار ، موسوم بالتناسق والاعتدال .

٢ ـ تخبط الحياة البشرية لقيامها على أساس من هـــذا الجهل ، منذ افترق طريقها عن المنهج الذى وضعه للإنسان صانعه الحكيم ، الخبير بفطرته وبخصائصه . . المنهج المراعى فيه تلبية حاجته الفطرية الحقيقية كاملة ، وتنمية خصائصه وترقيتها كذلك ، حتى تتـكافأ مع الدور المقسوم لهذا الـكائن فى الخلافة فى الأرض ، وتنمية الحياة فيها وترقيتها ، واستغلال كنوزها وطاقاتها كلها فى التعمير والتنمية والارتقاء .

٣ ـ قيام حضارة مادية لا تلائم الإنسـان ، ولا تحترم خصائصه تعامله بالمقاييس الآلية ـ التى هى فى دائرة علمنـا ومعرفتنا المترقية ـ وبالمقاييس الحيوانية ، التى أمكن دراستها فى عالم الحيوان !

٤ ـ بروز آثار هذه الحضارة وتضخمها فى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، وسارت شوطا بعيدا فى تطبيق المنهج الآلى الحيوانى على الحياة الإنسانية ، بدون كبير اعتبار للخصائص الإنسانية الأصلية ، التى تفرق « الإنسان » من « الآلة » ومن « الحيوان » . وظهور طلائع مفزعة ، تنذر بما وراءها من الدمار . .

وتناول هذه العناصر بشىء من الشرح والإيضاح يكفى لتصوير حقيقة المأساة التى تعيشها البشرية بجملتها اليوم ـ شاعرة أو غير شاعرة ـ ولتصوير حقيقة الكارثة التى تنحو البشرية بجملتها نحوها ـ شاعرة كذلك أو غير شاعرة ـ كما يكفى كذلك لإثارة التطلع إلى رحمة الله لتجنيب البشرية ذلك المصير البائس ، بالاستماع إلى نداء الفطرة ، وصوت الله ، ولو فى آخر اللحظات .

الإنسان ذلك المجهول

هذا العنوان ليس من عندنا ، إنما هو من عند « عالم » أوربى ــ أمريكى ــ لا يجادل « علماء » الحضارة الحديثة فى مكانته « العلمية » ولا فى « حداثة » نظرياته ــ أو دراساته بتعبير أدق ــ ولا فى جديتها .

إنه عنوان كتاب مشهور للدكتور « ألكسيس كاريل [1] » .

والكاتب يعرّفنا بنفسه وبكتابه فى مقدمة هذا الكتاب . وسنحتاج أن ننقل قسما كبيرا من هذا التعريف فى هذا الفصل ، لأهميته فى الاستدلال الذى نرمى إليه ، وذلك قبل أن نقتبس آراء هذا « العالم » الكبير عن « جهلنا المطبق » بالإنسان . . .

« لست فيلسوفا ، ولكنى رجل علم فقط ، قضيت الشطر الأكبر من حياتى فى المعمل ، أدرس الكائنات الحية ، والشطر الباقى فى العالم الفسيح ، أراقب بنى الإنسان ، وأحاول أن أفهمهم . . ومع ذلك فإننى لا أدعى أننى أعالج أمورا خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية .

« إننى أحاول أن أصف فى هذا الكتاب ما هو معروف بعد أن أفصله بكل وضوح عن كل مديح . كما أعترف بوجود المجهول غير المعروف .

---

(١) ولد الدكتور كاريل بالقرب من ليون فى فرنسا ، وحصل على إجازة الطب بها ، كما حصل على إجازة العلوم من ديجون . وبعد أن مارس التدريس فى جامعة ليون عدة أعوام رحل إلى الولايات المتحدة . واشتغل فى معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك . وبقى به قرابة ثلاثين عاما حتى اعتزل العمل به سنة ١٩٣٩ . ثم عهدت إليه وزارة الصحة الفرنسية بمهمة خاصة تتصل بالحرب . وكانت هذه المهمة تكملة لمهمة اضطلع بها إبان الحرب العالمية الأولى ، عندما كان يعمل جراحا مع القوات الفرنسية والبريطانية والأمريكية . . . ومنح جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة . .

« ولقد اعتبرتُ « الإنسان » ملحصا للملاحظات والتجارب ، فى جميع الأوقات والبلدان ، بيد أننى لم أصف إلا ما رأيته بناظرى ، أو عرفته مباشرة من أولئك الذين كنت على صلة بهم . وكان من حسن حظى ، أن سمح لى مركزى بأن أدرس ـ دون بذل أى مجهود ، أو الطمع فى أى ثناء ـ ظواهر الحياة فى تعقيدها المخيف . فلاحظت كل وجه من وجوه النشاط البشرى بصفة عملية ، كما أننى ملم بكل ما يكتنف الفقير والغنى ، الصحيح والسقيم ، المتعلم والجاهل ، ضعيف العقل والمجنون ، الذكى والمجرم . . . الخ . . . كذلك فإننى أعرف الفلاحين والعمال ، الكتبة وأصحاب المتاجر ، الماليين وأصحاب المصانع ، الساسة ورجال الحكم ، الجنود وأساتذة الجامعات ، المدرسين ورجال الدين ، البرجوازيين والأرستقراطيين . . ولقد ألقت بى الظروف فى طريق الفلاسفة والفنانين ، والشعراء والعلماء ، والعباقرة والقديسين . . كما درست فى الوقت نفسه التركيب الميكانيكى الغائر فى أعماق الأنسجة وتلافيف المخ ، الذى هو فى الحقيقة الأساس العميق للظواهر العضوية والعقلية .

« إننى مدين لفنون الحياة العصرية ، لأنها مكنتنى من مشاهدة هذا المنظر العظيم ، كما أتاحت لى فرصة توجيه انتباهى إلى عدة موضوعات فى وقت واحد . . إننى أعيش فى العالم الجديد والقديم أيضا . . وأمتاز بأننى أقضى معظم وقتى فى « معهد روكفلر للبحث الطبى » كواحد من العلماء الذين جمعهم « سيمون فلكسنر » معاً فى هذا المعهد .. فهناك أفكر فى ظواهر الحياة حيما يحللها الخبراء الذين لا يبارون ، أمثال « ملتزر » و « جاك لويب » و « نجيوشى » ، وكثيرون غيرهم . ولما اتصف به « فلكسنر » من عبقرية ونبوغ ، فقد دُرستْ الكائنات الحية بنظرة فسيحة الأفق ، بشكل لم يسبق له مثيل ـ فالمادة تفحص وتستقصى فى كل قسم من معامل هذا المعهد ، بحثا عن ارتقائها وتطورها من ناحية صنع الإنسان .

« وبمساعدة أشعة إكس يكشف علماء الطبيعة عن بناء جزيئات مواد أنسجتنا الأكثر بساطة ـ أى العلاقات الاتساعية للذرات التى تدخل فى تركيب هذه الجزيئات ـ ويعكف الكيماويون ، والكيمائيون الطبيعيون ، على تحليل المواد الأكثر تعقيدا ، التى توجد بداخل الجسم ، كهيموجلوبين الدم ، وبروتينات الأنسجة ، وأخلاط الجسم ، والتخمرات التى تسبب ذلك الانقسام المستمر ، وإيجاد ذلك المجموع الكلى الهائل من الذرات .

« وهناك كيماويون آخرون لم يقصروا اهتمامهم فى تركيبات الجزيئات وحدها ، وإنما انصرفوا إلى التفكير فى علاقات تلك التركيبات إحداها بالأخرى ، عندما تدخل عصارات الجسم . . أو باختصار . . ذلك التعادل الطبيعى ـ الكيماوى الذى يحفظ دائما تركيب مصل الدم ، بالرغم من التغير الذى يطرأ على الأنسجة بصفة مستمرة .

« وهكذا ألقى الضوء على الجوانب الكيماوية للظاهرة الفسيولوجية ، لأن كثيرين من علماء وظائف الأعضاء يدرسون ـ مستعينين فى ذلك بفنون شديدة الاختلاف ـ التركيبات الأكبر التى تنتج من مجموع الجزيئات وترتيبها ، كذا خلايا الأنسجة والدم ، أو بمعنى آخر : مادة الحياة نفسها . . إنهم يختبرون هذه الخلايا ، وطرق اتحادها ، والقوانين التى تحكم علاقاتها بما يحيط بها ، وتأثير الوسط الكونى على هذا المجموع ؛ كذا تأثيرات المواد الكيماوية على الأنسجة والشعور .

« وهناك إخصائيون آخرون ، وقفوا أنفسهم على البحث فى تلك الكائنات الضئيلة : الفيروس والبكتريا ، التى تعزى إصابتنا بالأمراض المعدية إلى وجودها فى دمنا . كذا الوسائل الرائعة التى يستخدمها الجسم فى مقاومتها . . وأيضا الأمراض القتالة كالسرطان ، وأمراض القلب ، والتهاب الكلى .

« وأخيرا فإن مشكلة « الفردية [1] » الخطيرة ، وأساسها الكيماوى تهاجم الآن بنجاح .

« وقد أتيحت لى فرصة استثنائية للاستماع إلى رجال عظماء تخصصوا فى هذه الأبحاث ، وتتبع النتائج التى أسفرت عنها تجاربهم . . وهكذا بدت لى الجهود التى تبذلها المادة الجامدة فى نظام الجسم ، وخواص الكائنات الحية ، وتناسق جسمنا وعقلنا . . بدت لى هذه الأشياء فى أوج جمالها .

وعلاوة على ذلك فقد درست أكثر الموضوعات المختلفة ، من الجراحة ، إلى فسيولوجية الخلية ، إلى الميتافيزيقا [2] .

« ولقد كان ذلك مستطاعا بسبب التسهيلات التى وضعت لأول مرة تحت تصرف العلم لكى يؤدى رسالته » . . . (ص ٥ ــ ص ٨)

* * *

هذا الرجل الذى أتيحت له فرصة الانتفاع بكل هذه التيسيرات ، والذى اطلع على نتائج هذه البحوث مجتمعة حول « الإنسان » هو الذى يصدر بعد ذلك كتابا يسميه « الإنسان ذلك المجهول » [3] . والذى يقرر أن حقيقة علمنا عن الإنسان لا شىء ! وأننا نعيش فى « جهل مطبق » بهذا الكائن ، الذى هو نحن !

ولندعه هو يتكلم :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة . . فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية . وقد

(١) كون كل فرد إنسانى له خصائص ذاتية ــ غير الخصائص الإنسانية المشتركة ــ تجعله كائنا بذاته أو عالما بذاته .

(٢) ماوراء الطبيعة .

(٣) تعريب شفيق أسعد فريد . منشورات مكتبة المعارف بيروت .

أنشأت هـذه العلوم عالمـا متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة . إنها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الإحصاءات والنظريات .

« بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الأشجار ؛ أو أنهم فى قلب دغل سحرى ، لا تكف أشجاره التى لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ! فهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق ، التى يستطيعون أن يصفوها ، ولـكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها فى معادلات جبرية . فمن الأشياء التى تراها العين فى عالم المـاديات ، سواء كانت ذرات أم نجوما ، صخورا أم سحبا ، صلبا أم ماء . . . أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد الاتساعيـة . . وهـذه المستخلصات ـ وليست الحقائق العلمية ـ هى مادة التفـكير العلمى . . وملاحظة الأشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأنا ، ونعنى بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفى يرتب الظواهر . بيد أن العلاقات التى لا تتغير ، بين الـكميات غـير القابلة للتغيير ـ أى القوانين الطبيعية ـ تظهر فقط عندما يصبح العـلم أكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذى نراه فى علمى الطبيعة والـكيمياء إلا لأنهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من أنهما لا يدعيان أنهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للأشياء ، فإنهما يمدانـنـا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل ، وتقرير كيفية وقوعها طبقا لإرادتنـا . و بتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شىء موجود على ظهر البسيطة . . فيما عدا أنفسنا . .

« ولـكن علم الـكائنات الحية بصفة عامة ـ والإنسان بصفة خاصة ـ لم يصب مثل هذا التقدم .. إنه لا يزال فى المرحلة الوصفية .. فالإنسان كل لا يتجزأ ، وفى غاية التعقيد ؛ ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ؛ وليست هنـاك طريقة لفهمه فى مجموعه ،

أو فى أجزائه ، فى وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى .

ولكى نحال أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة ؛ و إلى استخدام علوم عديدة . ومن الطبيعى أن تصل كل هذه العلوم إلى رأى مختلف فى غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط . و بعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة .. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية ، بحيث لا يمكن إهمالها .

« إن التشريح والكيمياء ، والفسيولوجيا . وعلم النفس ، والبيداجوجيا (فن التعليم) والتاريخ وعلم الاجتماع ، والاقتصاد السياسى . . لا تلم بجوانب موضوعها كلها . و « الإنسان » ـ كما هو معروف للإخصائيين ـ أبعد من أن يكون « الإنسان الجامد » . « فالإنسان الحقيقى » لا يزيد أن يكون رسما بيانيا ، يتكون من رسوم بيانية أخرى أنشأتها فنون كل علم . وهو ـ فى الوقت نفسه ـ « الجثة » التى شرحها البيولوجيون (علماء الحياة) ، و « الشعور » الذى لاحظه علماء النفس وكبار معلمى الحياة الروحية ، و « الشخصية » التى أظهر التأمل الباطنى لكل إنسان أنها كامنة فى أعماق ذاته . . إنه ـ أى الإنسان ـ عبارة عن « المواد الكيماوية » التى تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا . . إنه تلك الجمهرة المدهشة من « الخلايا والعصارات المغذية » التى درس الفسيولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) قوانينها العضوية . . إنه ذلك « المركب من الأنسجة والشعور » الذى يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا أثناء نموه مع الزمن . . إنه ذلك « الكائن الحى العالمى » الذى يجب أن يستهلك بلا انقطاع السلع التى تنتجها المصانع ، حتى يمكن أن تظل الآلات ـ التى جعل لها عبدا ـ دائرة بلا توقف . . ولكنه قد يكون أيضاً شاعرا ، أو بطلا أو قديسا . . إنه ليس فقط ذلك

المخلوق شديد التعقيد الذى تحلله فنوننا العلمية ، ولكنه أيضا تلك « الميول والتكوينات وكل ماتنشده الإنسانية من طموح .

« وكل آرائنا عنه مشربة بالفلسفة العقلية . . وهذه الآراء جميعا تنهض على فيض من « المعلومات غير الدقيقة » بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط . ومن ثم فإن فكرتنا عن « الإنسان » تختلف تبعا لإحساساتنا ومعتقداتنا . . فالشخص المادى والشخص الروحى يقبلان نفس التعريف الذى يطلق على بلورة من « الكلوريد » . ولكنهما لا يتفقان أحدهما مع الآخر فى تعريف « الكائن الحى » . . وعالم وظائف الأعضاء الذى يبحث فى « عمليات الجسم الميكانيكية » وعالم وظائف الأعضاء الذى يبحث فى « مذهب الحياة نفسه » لا يمكن أن ينظرا إلى جسم الإنسان من زاوية واحدة . وكذلك فإن الكائن الحى كما يراه « جاك لويب » ، يختلف اختلافا عظيما عما يراه « هانز » و « ريش » .

« وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لكى يعرف نفسه ، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا . . إننا لا نفهم الإنسان ككل . . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ! !

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية ، مازالت غير معروفة . فنحن لا نعرف حتى الآن ، الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

« كيف تقرر « الجينس » (ناقلات الوراثة) فى نواة البيضة الملقحة ، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

« كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهى كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذى قدّر لها أن تلعبه فى حياة المجموع ، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد فى الوقت ذاته .

« ماهى طبيعة تكويننا النفسانى والفسيولوجى ؟ إننا نعرف أننا مركّب من الأنسجة ، والأعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزاً . إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية . . إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية العقلية التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيماوية الموجودة فى الطعام والمناخ ، والنظم النفسية والأدبية ؟

« إننا مازلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمى والعضلات والأعضاء ، ووجوه النشاط العقلى والروحى . . وما زلنا نجهل العوامل التى تحدث التوازن العصبى ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الأمراض .

« إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبى ، وقوة الحكم ، والجرأة . . ولا ماهى الأهمية النسبية للنشاط العقلى والأدبى . . كذلك النشاط الدينى .

« أى شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟

« لا شك مطلقا فى أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هى التى تقرر السعادة

أو التعاسة ، النجاح أو الفشل . . ولكننا لا نعرف ماهى هذه العوامل .. إننا لا نستطيع أن نهب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية .

« وحتى الآن فإننا لا نعرف أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدين وتقدمه .

« هل فى الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجى والروحى ؟

« كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه فى المدنية العصرية ؟

« وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها ، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر فى غاية الأهمية بالنسبة لنا . . ولكنها ستظل جميعا بلا جواب . . فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ، غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب . . . » ص (١٣ ـ ١٨)

* * *

ولكن لماذا كان جهلنا مطبقا بحقيقة الإنسان ؟ لماذا كانت هذه الحقيقة تسير فى موكب من الأشباح ، بحيث لا نستطيع رؤيتها بوضوح ؟ ولماذا كان الذين يدرسون الحياة كمن ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الأشجار ، أو فى قلب دغل سحرى ، لا تكف أشجاره التى لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ؟ !

هل كان ذلك لقصور وسائلنا العلمية فى فترة من الفترات ؟ أم لظروف وقتية من ظروف حياتنا الإنسانية ؟ ومن ثم يكون هناك أمل كبير وفرص كثيرة لتكملة تلك الوسائل ، وتغيير هذه الظروف ، ثم الوصول إلى معرفة الحقيقة الإنسانية كاملة واضحة محددة ؟

أم إن هناك أسبابا ثابتة فى طبيعة الحقيقة الإنسانية من جهة ، وفى طبيعة تفكيرنا وعقولنا من جهة أخرى ، هى التى تنشئ تعذر الوصول إلى هذه الحقيقة بمثل الوضوح والدقة المعهودين فى عالم المادة ؟

يقرر العالم الكبير وجود هذه الأسباب وتلك ؛ ويقرر أنه لا أمل فى إزالة هذا النوع الأخير من أسباب تعذر رؤية هذه الحقيقة . يقرر هذا فى أسلوب العالم ، الذى واجه هذه الحقيقة ، وعرف طاقة العلم وحدوده فى مجالها . . ومع أن الاقتباس من كلامه سيطول ، فإننا نؤثر أن ندعه هو يتكلم فى هذه النقطة بأسلوبه الخاص ومن وجهة نظره التى قد نوافقه على بعضها ، ونخالفه فى بعضها :

« قد يعزى جهلنا فى الوقت ذاته ، إلى طريقة حياة أجدادنا . وإلى طبيعتنا المعقدة وإلى تركيب عقلنا . . .

« مهما يكن من أمر ، فقد كان على الإنسان أن يعيش . وهذه الضرورة طالبته بقهر العالم الخارجى . وإذ لم يكن له مفر من الحصول على الغذاء والمأوى ، كما لم يكن له مفر من قتال الحيوانات المتوحشة وغيره من بنى الإنسان . . ولآماد طويلة لم يفز أجدادنا الأوائل بوقت فراغ ، كما لم يشعروا بأى ميل إلى دراسة أنفسهم ، إذ كانوا يستخدمون عقولهم فى أمور أخرى كصناعة الأسلحة والأدوات ، واكتشاف النار ، وتدريب الماشية والجياد ، واختراع المركبات ، وزراعة الحبوب . . الخ . . وقبل أن يهتموا بتركيب أبدانهم وعقولهم بوقت طويل ، فكروا فى الشمس والقمر والنجوم ، والتيارات المائية ، وتوالى الفصول الأربعة . . ولهذا تقدم علم الفلك بخطى واسعة ، فى عهد كان علم الفسيولوجيا لا يزال غير معروف بتاتا . . فقد قهر جاليليو الأرض وهى مركز المجموعة الشمسية . وذلك على أنها تابع متواضع من توابع الشمس . بينما لم تكن لدى

معاصريه أية فكرة ، ولو أولية ، عن تركيب ووظائف العقل والكبد ، وغدة الثايارويد (الغدة الدرقية) . ونظراً لأن الجسم البشرى يؤدى وظائفه بطريقة مرضية فى أحوال الحياة الطبيعية ، ولا يحتاج لأى اهتمام ، فقد تقدم العلم فى الاتجاه الذى وجهه إليه حب الاستطلاع البشرى ـ أى فى اتجاه العالم الخارجى .

« ومن بين ملايين الملايين من الجنس البشرى الذين سكنوا هذا العالم بالتعاقب ، كان يولد أشخاص قلائل ، من حين لآخر ، وهبتهم الطبيعة [1] قوى مدهشة نادرة ، كسرعة إدراك الأشياء المجهولة ، والخيال الذى ابتدع عوالم جديدة ، والقدرة على اكتشاف العلاقات الخفية الموجودة بين ظواهر معينة . . وقد استكشف هؤلاء الرجال العالم المادى . . وهو عالم بسيط التركيب . ومن ثم فقد استسلم بسرعة لهجمات العلماء ، وسلم أسرار قوانين معينة من قوانينه . وقد مكنتنا معرفة هذه القوانين من استخدام عالم المادة لفائدتنا . فإن التطبيق العملى للاكتشافات العلمية يدر ربحاً على أولئك الذين يحسنونها ويرتقون بها . وفضلا عن ذلك ، فإن استخدامها يؤدى إلى تسهيل حياة الجميع . . إن هذه الاكتشافات تسر الجمهور ، لأنها تزيد فى راحته ورفاهيته . وبالطبع أصبح كل شخص أكثر اهتماما بالاكتشافات التى تقلل من بذل المجهود الآدمى ، وتخفف العبء عن العامل ، وتزيد فى سرعة وسائل المواصلات ، وتلطف من خشونة الحياة ، أكثر من اهتمامه بالاكتشافات التى تلقى بعض الضوء على أجسامنا وإحساساتنا . .

---

(١) على الرغم من إيمان الرجل بالله . . الإيمان القائم على مشاهدته للحقيقة فى المجال العلمى . . فإنه تندس فى تعبيره مثل هذه الجملة « وهبتهم الطبيعة » بحكم الوراثات والرواسب الثقافية الغائرة . وهو تعبير لا معنى له فى العقل المؤمن ! فإن الواهب هو الله ؟ والطبيعة ـ بمعنى الكون ـ من خلق الله ، وهى غير قادرة على الهبة ولا الخلق ، لأنها ليست إلهاً ، فلا إله إلا الله . ومن ثم لا خالق إلا الله . ولا واهب إلا الله .

وهكذا أدى قهر [1] العالم المادى ، الذى استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة ، إلى نسيان العالم العضوى والروحى نسيانا تاما .

« وحقيقة الأمر أنه لم يكن مناص من معرفة ما يحيط بنا . ولكن ذلك لا يعنى أن معرفة طبيعتنا أقل أهمية . . ومع ذلك فقد اجتذب المرض والألم والموت ، وإلى حد ما تلك اللهفة الغامضة من نمو تلك القوة الخفيـة التى تسمو على عالمنا المادى . . كل هؤلاء اجتذبوا انتباه بنى الإنسان ـ إلى درجة ما ـ نحو العالم الداخلى لأجسامهم وعقولهم .

« وقد قنـع الطب فى بادىء الأمر ، بالمشكلة العمليـة ، أى إراحة الإنسان من المرض عن طريق الوصفات . ولكنه ـ أى الطب ـ أدرك أخيرا ، أن الطريقة الفعالة لمنع المرض أو الشفاء منه ، هى فهم الجسم الطبيعى والجسم المريض فهما تاما . . وبعبارة أخرى إنشاء العلوم التى تعرف باسم « علم التشريح » و « علم كيمياء الحياة » و « علم وظائف الأعضاء » و « علم الأمراض » . .

« وعلى كل حال كان يبدو لأسلافنا أن لغز وجودنا ، ومتاعبنا الأدبية ولهفتنا على المجهول ، وظاهرة علم ما وراء المادة ، أكثر أهمية من الآلام البدنية والأمراض . ومن ثم فقد اجتذبت دراسة الحياة الروحيـة والفلسفة أنظار رجال عظماء أكثر مما اجتذبتهم دراسة الطب . فعرفت قوانين « التصوف » قبل أن تعرف قوانين علم وظائف الأعضاء . . ولكن أمثال هذه القوانين عرفت فقط عندما ظفر الإنسان بوقت فراغ كاف ، جعله

---

(١) التعبير بكلمة « قهر » ظاهرة من ظواهر العقلية الغربية ؛ تنشأ عن راسب من رواسب الأساطير الإغريقية والرومانية ؛ ويغذيها منطق « القوة » السائد فى أوربا الاستعمارية . . إذ تقوم كل علاقة فى حس الأوربى على أساس « قاهر » و « مقهور » . . إذ ليس هناك علاقة « التفاهم » أو « الصداقة » ! أما فى الحس المسلم فالله هو الذى يسخر الكون للانسان ، والإنسان « يتعرف » إلى النواميس الكونية فينتفع بها بإذن الله . . (يراجع بتوسع كتاب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » . . للمؤلف . .

يحول قليلا من اهتمامه إلى أشياء أخرى غير قهر العالم الخارجي .

« وثم سبب آخر للبطء الذى اتسمت به معرفتنا لأنفسنا . . وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير فى الحقائق البسيطة ، إذ أننا نشعر بضرب من النفور حين نضطر إلى تولى حل مشكلة معقدة مثل تركيب الكائنات الحية والإنسان . . فالعقل ـ كما يقول برجسون ـ يتصف بعجز طبيعى عن فهم الحياة . . وبالعكس فإننا نحب أن نكشف فى جميع العوالم ، تلك الأشكال الهندسية الموجودة فى أعماق شعورنا . . إن دقة النسب البادية فى تماثيلنا ، وإتقان آلاتنا ، يعبران عن صفة أساسية لعقلنا . . فالهندسة غير موجودة فى دنيانا وإنما أنشأناها نحن . إذ أن وسائل الطبيعة لا تكون أبدا بالدقة التى تتصف بها وسائل الإنسان . فنحن لا نجد فى العالم ذلك الوضوح وتلك الدقة اللتين يتصف بهما تفكيرنا . . ومن ثم فإننا نحاول أن نستخلص من تعقد الظواهر ، بعض النظم البسيطة التى تحمل عناصر ، لإحداها بالأخرى علاقات معينة ، تكون قابلة للوصف حسابيا . وقدرة الاستخلاص هذه التى يتمتع بها العقل البشرى مسؤولة عن ذلك التقدم الرائع الذى أحرزه علماء الطبيعة والكيمياء .

« ولقد لقيت الدراسة الطبيعية ـ الكيماوية للكائنات الحية نجاحا مماثلا ، فقوانين الطبيعة والكيمياء متماثلة فى عالم الكائنات الحية وعالم الجماد ـ كما خطر ببال كلود برنار منذ أمد بعيد ـ وهذه الحقيقة توضح لماذا اكتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلا ، أن استمرار قلوية الدم وماء المحيط تفسرها قوانين متماثلة ، وأن النشاط الذى تستهلكه العضلات المتقلصة يقدمه تخمر السكر . . الخ ، وأن النواحى الطبيعية ـ الكيماوية للكائنات الحية يسهل تقريبا فحصها ، مثل تلك النواحى فى الأشياء الأخرى الموجودة فى العالم المادى . تلك هى المهمة التى نجح علم الوظائف العام فى تحقيقها .

« إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحقة ـ أى تلك الظواهر التى تنتج من تنظيم الكائن الحى ـ تواجه عقبات أكثر أهمية ، إذ أن شدة ضآلة الأشياء التى يجب تحليلها ، تجعل من المستحيل استخدام الفنون العادية لعلمى الطبيعة والكيمياء . . فأى طريقة يمكن أن تكشف القناع عن التركيب الكيماوى لنواة الخلية الجنسية ، والكروموسومات ، والجينس التى تؤلف هذه الكروموسومات ؟ مهما يكن فإن المجموع الكلى للمواد الكيماوية الشديدة الضآلة ، على أعظم جانب من الأهمية ، لأنها تحتوى على مستقبل الفرد والجنس . كما أن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب ـ مثل المادة العصبية ـ عظيمة إلى درجة أن دراستها فى حالة الحياة مستحيلة تقريباً .

« ونحن لا نملك أى فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه ، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه . . وعقلنا الذى يحب ذلك الجمال البسيط للتراكيب الحسابية ، ينتابه الفزع حينما يفكر فى تلك الأكداس الهائلة من الخلايا ، والأخلاط ، والإحساسات التى يتكون منها الفرد . . ومن ثم فإننا نحاول أن نطبق على هذا المخلوط ، الأفكار التى ثبتت فائدتها فى مملكة الطبيعة والكيمياء والميكانيكيات . . كذا فى النظم الفلفسية والدينية .. ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحا كبيرا ، لأن أجسامنا لا يمكن أن تختزل إلى نظام طبيعى ـ كيماوى ، أو إلى كيان روحى . . بالطبع إن على « علم الإنسان » أن يستخدم آراء جميع العلوم الأخرى ، ولكن عليه أيضاً أن ينمى آراءه الخاصة ، لأنه علم جوهرى مثل علوم الجزيئات والذرات والإلكترونات .

« صفوة القول : أن التقدم البطىء فى معرفة بنى الإنسان ـ إذا قورن بالتقدم الرائع فى علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا ـ يعزى إلى :

١ ـ حاجة أجدادنا إلى وقت فراغ .

٢ ـ وإلى تعقد الموضوع .

٣ ـ وإلى تركيب عقولنا

« وهذه العقبات أساسية . وليس هناك أمل فى تذليلها . وسيظل التغلب عليها شاقا يستلزم جهودا مضنية . .

« إن معرفة نفوسنا لن تصل أبدا إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال ، التى بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التى أخرت تقدم علم الإنسان . . فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان « هو أصعب العلوم جميعا » .

☆☆☆

وهكذا يتضح من تقريرات هذا العالم الكبير ، الذى أتيحت له فرصة الاطلاع على نتائج البحوث الضخمة ، أن هناك فارقا اساسيا بين علوم المادة وعلوم الحياة . وأن هنالك بالذات فارقا أساسيا بين طبيعة علوم المادة ، وطبيعة علم الإنسان ؛ وبين طبيعة موقف العقل من هذه وتلك . وأن هذا الفارق كامن فى أمرين ثابتين ، لا يتعلقان ببيئة ولا زمان ، ولا بظروف وقتية مرهونة بالزمان والمكان . . هما :

١ ـ تعقد الموضوع

٢ ـ طبيعة تركيب عقولنا

وأن تقدم الإنسان فى علوم المادة ، وإبداعه فى العالم المادى ، وصحة بحوثه ونظرياته فى ذلك الحقل ، لا تقتضى تقدمه فى علم الإنسان ، ولا صحة بحوثه ونظرياته فى هذا الحقل . وأن هذا الحقل غير ذاك . فى طبيعتهما أولا ، ثم فى مدى التقدم الذى وصل إليه الإنسان بالفعل ثانيا . ثم فيما ينتظر تقدم الإنسان فى كليهما ثالثا .

وأن « جهلنا مطبق » بالإنسان كما يقرر « العالم » الكبير . . .

* * *

هذا الواقع « العلمى » من : « الجهل المطبق» بالإنسان ـ مع العلم النسبى بالمادة ـ نتيجة متوقعة ، وثمرة طبيعية ، لحقيقة دور الإنسان فى الأرض ، وغاية وجوده الإنسانى فى الكون ، كما تبدو من خلال التصور الإسلامى .. والإسلام يرتب على هذه الحقيقة نتائجها ، فيطلق يد الإنسان فى عمارة الأرض ، واستخدام طاقاتها وخاماتها . والتحليل فيها والتركيب ، والتحوير فيها والتعديل .. بينما هو يضع لهذا الإنسان منهج حياته ، الذى يحكم هذه الحياة ، ولا يكل إليه هو وضع هذا المنهج ، لأنه مزود بطاقات معينة ليتحكم فى المادة عن علم ـ نسبى طبعا ـ بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه ، حتى يتحكم فى أمرها عن علم كما هو يتحكم فى المادة .

فالإنسان ـ فى التصور الإسلامى ـ هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل مافيها مسخر له ، بقدرة الله تعالى ، وقد أوتى إمكان العلم بشؤونها ، هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطيباتها وجمالها ، نعمة منه خالصة .. وليست الأرض وحدها وكل مافيها من أحياء وأشياء . . ولكن كذلك السماوات مهيأة لمساعدة الإنسان فى خلافته فى الأرض ، ومراعىً فى بنائها دور الإنسان فى هذه الخلافة . . إنه أمر عظيم هائل .. ولكنه كذلك !

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات. وهو بكل شىء عليم . وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها،ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى

بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين .. »

(البقرة ٢٩ ـ ٣٤)

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السماوات ومافى الأرض جميعا منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ... (الجاثية : ١٢ ـ ١٣)

« والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات و بالنجم هم يهتدون » ... (النحل : ٥ ـ ١٦)

ولكن هذا الإنسان ـ فى التصور الإسلامى كما هو فى الحقيقة ـ على كل ما استودعه

الله من أمانة الخلافة الكبرى فى هذا الملك العريض . وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه هو من طاقات المعرفة والاستعداد لإدراك الجوانب اللازمة له فى الخلافة من النواميس الكونية . . على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا ، ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلازمه جهله بنفسه فى كل حين . . ومن ثم لم يترك أمر نفسه ومنهجه فى الحياة لشهواته وهواه وضعفه وجهله . . ولكن أكمل الله عليه نعمته ورعايته ، فتولى عنه هذا الجانب ، الذى يعلم ــ سبحانه ــ أن الإنسان لا يقدر عليه قدرته على المادة ، ولا يعلم بمقتضياته علمه بقوانين المادة .

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخضوعه للإغراء والشهوات ، مايصوره القرآن الكريم من استسلامه لإغواء الشيطان له بشهوة الخلد وشهوة الملك ، ونسيانه أنه عدوه الذى يتربص به ، ونسيانه كذلك تحذير الله له . . وهو تصوير للحقيقة الخالدة فى الإنسان ــ مالم يعتصم بالله ومنهجه للحياة ــ وإلا فهو الشقاء والنكد فى الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا ، إلا إبليس أبى . فقلنا : يا آدم إن هذا عدوٌ لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان : قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى : فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى

أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » . .

(طه ١١٥ ــ ١٢٧)

وتتواتر الإشارات إلى جهل الإنسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآلات أفعاله ، مع تأثره بالشهوات وبالهوى وبالضعف بحيث لا يصلح ــ بجهالته هــذه وضعفه وهواه ــ لأن يتولى وضــع منهج لحيــاته هو ، وإن كان مزوداً بالقدرة على استخدام المــادة ؛ ومعرفة قوانينها اللازمة له فى الخلافة . . فى إطار المنهج الذى رسمه الله لحياته . .

« ولــكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . . . »

(الروم : ٦ ــ ٧)

« ويسألونك عن الروح : قل : الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العــلم إلا قليلا » ... (الأسراء : ٨٥)

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . . . (لقمان : ٣٤)

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لــكم نفعاً » . . . (النساء : ١٩)

« فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (النساء : ١٢)

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لــكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لــكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . . . (البقرة : ٢١٦)

« لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . . . (الطلاق : ١)

« إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ...
(النجم : ٢٣)

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » . . .
(المؤمنون : ٧١)

« إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا » . . .
(المعارج : ١٩)

وغير هذه الإشارات في القرآن كثير ... وهي تجيء - غالبا - تعقيبا على التشريعات والتوجيهات التي يسنها الله للناس ، ويخبرهم معها أنهم هم لا يستطيعون أن يشرعوا لأنفسهم ؛ وليست لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع منهج لحياتهم هم أنفسهم ، لأنهم يجهلون أنفسهم ، ويجهلون مآلات تصرفاتهم ورغباتهم ، ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم . . وكلها مؤثرات تجعل من الخطر على وجودهم ، وعلى خط سيرهم في الحياة ، أن يتولوا هم وضع شريعتهم وتخطيط منهج حياتهم الأصيل .

فنجد هذه الإشارات في مثل هذه المناسبات .

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »
. . . (الجاثية : ١٨)

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ... (البقرة : ٥٦)

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن — إلا أن يأتين بفاحشة مبينة — وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا » .
. . . (النساء : ١٩)

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

. . . (الطلاق : ١)

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ـ إن كان له ولد ـ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث . فإن كان له إخوة ، فلأمه السدس ـ من بعد وصية يوصى بها أو دين ـ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا .. فريضة من الله .. إن الله كان عليما حكيما » . . (النساء : ١١)

كما نجد التنصيص القاطع والتشديد الحاسم ـ الذى لا يقبل المحال والجدال ـ على أنه لا يُسلم المسلم ، ولا يؤمن المؤمن ، حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه ، وشريعة الله للحياة شريعته ، ولا يتخذ من عند نفسه لحياته منهجا ولا شريعة . وإلا ادعى لنفسه ـ بهذا ـ حق الألوهية فكفر بألوهية الله ، ورفض إفراد الله بالألوهية . وكفر معه كل من يقره على ادعاء حق الألوهية لنفسه ، بادعاء حق التشريع من دون الله واتخاذ منهج غير منهج الله للحياة .

وتتوالى النصوص القاطعة المؤكدة لهذه القاعدة الأساسية فى الإسلام على هذا النحو :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت [1] ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم

(١) الطاغوت كل سلطان لا يستند إلى سلطان الله ، وكل وضع لا يجعل شريعة الله أساسا للحياة .

ضلالا بعيدا . و إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ؟ أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . . . (النساء : ٦٠ : ٦٥)

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ـ للذين هادوا ـ والربانيون والأحبار . بما استُحْفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشَوُا الناس واخشون . ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .. فاحكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .. وأن احكم

بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ،وإن كثيرا من الناس لفاسقون.. أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ »

... (المائدة : ٤٤ ـ ٥٠)

وفى هذا القدر كفاية لتقرير نظرية الإسلام فى شأن « الإنسان » وتسليطه على عالم المادة ، وتسخيره له ، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له فى الخلافة.. وفى الوقت ذاته تقرير عجزه عن معرفة ذاته بمثل هذا الوضوح الذى يعرف به نواميس المادة ـ وإعفائه ـ تبعا لهذا ـ من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه ؛ وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته فى الأرض .. ثم .. إلزامه باتباع منهج الله هذا ، وإخراجه من دائرة الإيمان والإسلام ، إذا هو لم يتخذ هذا المنهج ، أو إذا هو اتخذ لنفسه منه جانبا وابتدع هو الجانب الآخر : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » .. وإنذاره بسوء الحال فى الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك أو بعضه : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » ... (طه : ١٢٤) « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ... (البقرة : ٢٧٩) .. وغيرها كثير .

ونعود بعد هذا الاستطراد فى بيان وجهة النظر الإسلامية فى حقيقة ما أعطى الإنسان من الاستعداد لمعرفته وما لم يعط ، ومقتضيات هذا وذاك فى حياته . . نعود إلى عناصر المأساة التى تعانيها البشرية اليوم ، باتخاذها حضارة ومناهج حياة ، قائمة على ذلك « الجهل المطبق » بالإنسان ـ كما يقرر « العالم » الغربى الكبير ـ فنجد هذا الجهل المطبق بالإنسان ـ إلى جانب المعرفة الواسعة بالمادة ـ عنصرا رئيسيا فى هذه المأساة.. لا لذاته . .

ولـــكن بسبب عدم الاعتبار به ، ثم المضى معه فى إقامة مناهج للحياة البشرية ، فى معزل عن هدى الله ، بل فى عداء وإصرار على تجنب هدى الله ، وفى نفرة منه كالتى يصورهـا القرآن الـكريم فى قوله تعالى : « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ؟ ! » ... (المدثر : ٤٩ـ ٥١)

وهذا يقودنا إلى العنصر الثانى من عناصر هـذه المأساة كما رتدناها فى كلمة الافتتاح . فلنحاول معالجة هذا العنصر الثانى ..

تخبط واضطراب

هذا « الجهل المطبق » بالإنسان الذى يتحدث عنه الدكتور « ألكسيس كاريل »، فى منتصف القرن العشرين ، لابد أنه كان أعمق وأشمل فيما قبل هذا القرن ، وقبل أن تبذل تلك الجهود الضخمة فى محاولة المعرفة ، وقبل أن يتجه البحث إلى « الإنسان » و إلى علوم الإنسان .

وهذا الجهل المطبق بالإنسان ، الذى ستبقى جوانب منه مهما بذل من الجهد ومهما تعددت حقول البحث ودرجاته ، نظرا للصعوبات الذاتية الكامنة فى تعقد موضوع الحياة من جهة ، وفى طبيعة عقولنا من جهة أخرى ..

هذا الجهل كان وما يزال يقتضى أن يظل الإنسان لاصقا بالله - سبحانه - قريبا منه ، ملتجئا إليه ، مهتديا بمنهجه الذى يضعه له عن علم وحكمة . وألا يغتر بفتوحات العقل والعلم فى عالم المادة ، ولا بمهارته فى الإبداع المادى - مهما بلغت قدرته ، ومهما فهم أنه أتى بالخوارق فى هذا المجال - فيدفعه هذا الغرور إلى تطبيق محاولاته فى عالم المادة على عالم الحياة . وبخاصة حياة الإنسان . وألا يفتنه هذا الغرور أيضاً ، فيجعله يحاول أن يضع لحياته مناهج مستقلة عن منهج الله . بله أن تكون معادية له ، شاردة عنه .

ولكنَّ الذى وقع فى أوربا أولا ، ثم عمت بلوته الأرض كلها فيما بعد ، كان على الضد من هذا كله . ومن ثم كان التخبط ، وكانت الشقوة ، وكان خط الدمار الذى تنحدر فيه البشرية إلى الهاوية فى هذا الزمان ، وكانت هذه الأزمة الحادة التى يواجهها « وجود » الإنسان .

إن هــذا الإخلاص العلمى الذى يدفــع رجلا كالدكتور كاريل فى منتصف القرن العشرين أن يقول : « وواقع الأمر أن جهلنا مطبق » . . لم يــكن له مجال فى الاندفاعة العاتية التى اندفعتها أوربا فى الشرود عن كل توجيــه دينى . ذلك أن ملابسات نــكدة وقعت بين الــكنيسة هناك والعلماء ، جعلت الناس يشردون من ظل الــكنيسة ـ ومن كل ظل للدين ـ شرودا لا عقل فيه ولا وعى ، ولا مجال لتحكيم العقل والوعى ، ولا لسماع أية كلمة مخلصة للتفرقة بين الدين فى ذاته والــكنيسة أولا ، ثم بين قدرة الإنسان على العمل فى عالم المــادة وعجزه عن العمل فى منهج حياة الإنسان أخيرا .

وكان لهذا الشرود أسبابه المفهومة فى أوربا . . وإليك عنصرا واحدا من عناصره :

كانت مناهج البحث العلمى قد نشأت ـ فى ظل الإســلام ـ فى جامعات الأندلس والشرق كما يقول دوهرنج وبريفولت ـ وكانت أوربا فى القرن الخامس عشر تنهل من هذه الجامعات ، وتعرف لأول مرة فى تاريخها شيئاً عن هــذه المناهج ، وشيئا عن المذهب التجريبى (الذى عرف به فيما بعد روجر بيكون وفرنسيس بيكون) والأول يعترف اعترافا صريحا بأنه اقتبس من « العالم » الإسلامى .

وفى هذا يقول دوهرنج :

« إن آراء روجر بيكون فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور (فرنسيس بيكون) . . ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله فى العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس . والقسم الخامس من كتابه : (Opus Majus) الذى خصصه للبحث فى البصريات ، هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وكتاب بيكون فى جملته شاهد ناطق على تأثره بابن حزم .

ويقول بريفولت فى كتابه : « بناء الإنسانية » (Making of Humanity) :

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربيـة فى مدرسة أكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى . فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية، وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس ، فى لهف ، على تحصيله فى ربوع أوربا » (ص ٢٠٢)

« لقد كان العلم أهم ماجادت به الحضارة العربية على العالم الحديث . ولـكن ثماره كانت بطيئة النضج . . إن العبقرية التى ولدتهـا ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية (ص ٢٠٢)

« إنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحـــدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ماتـكون وأهم مانـكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تـكون ماللعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره . أى فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى (ص ١٩٠)

« إن مايدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتـكرة . بل يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم ــ كما رأينا ــ لم يكن للعلم فيه وجود .

وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجابوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الاسكندرية فى عهدها الهلينى . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، بطرق التجربة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربى (ص ١٠٩)

* * *

وعندما انتقل المنهج الإسلامى الواقعى التجريبى إلى العقلية الأوربية ، اتجه الفكر الغربى إلى البحوث العلمية التجريبية. وبدأ البحث العلمى يكشف حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات التى تتبناها الكنيسة وتعتبرها « حقائق مقدسة » وهى ليست من النصرانية فى شىء ، إنما هى مجرد أفكار – غير علمية – كانت شائعة فى تلك الأزمان – ولم يتنزل بها كتاب من عند الله – فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءا من « العقيدة » .

ولقد وقفت الكنيسة وقفة عنيدة فى وجه هذا الاتجاه الجديد المنبثق من منبع الثقافة الإسلامية فى الأندلس وفى الشرق كذلك . وقابلت نتائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استقوا من ذلك النبع ، بجفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطانها ضدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة، وضمنا من إلٰهها الذى تستطيل

باسمه زورا و بهتانا ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الديني . فقد كان كل اعتراف أو خضوع للدين معناه الاعتراف والخضوع لهذا الطغيان الكنسي المشوم .

وعندئذ كان ذلك الفصام النكد بين الدين والعلم حتى مطالع القرن العشرين فى أوربا ، وظل اندفاع الناس - والعلماء خاصة - فى شرودهم الآبق عن الدين كله « كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة » .. ولم يهدأ هذا الشرود - شيئا ما - إلا فى مطالع القرن العشرين . حيث جعل بعضهم يقف ليلتقط أنفاسه اللاهثة ، وهو يحس بالخواء الروحي من آثار الرحلة الجاهدة ، فى التيه المقفر ، نحو أربعة قرون ...

☆☆☆

وما بنا - فى هذا البحث المجمل - أن نستعرض بالتفصيل كل الملابسات والظروف ، التى أحاطت بهذا الفصام النكد - فى أوربا - بين العلم والدين[1] ، ولا أن نصف بالتفصيل كذلك تلك الرحلة الشاردة الطويلة المجهدة فى التيه المقفر ؛ ولا أن نصور بالتفصيل مدى اللأواء والشقوة التى عانتها البشرية كلها ، وهى تشرد من الله ، وتتخلى عن كل ظل لمنهجه للحياة . وتعادى هذا المنهج ، وتبتدع لنفسها - بجهلها المطبق - مناهج من عند أنفسها طوال هذه القرون .

ولكننا سنحاول فقط اختيار بعض النماذج لتخبط البشرية فى التيه الطويل .

☆☆☆

إن الثمرة الطبيعية البديهية لجهلنا بحقيقة الإنسان - أو حتى لعدم إدراكنا كل جوانب هذه الحقيقة ، بفرض أننا وصلنا أو قد نصل إلى بعض جوانبها - هى أننا عاجزون عن وضع نظام شامل مضبوط صالح مصلح لحياته . وأن أى نظام نضعه له من عند أنفسنا - بعيدا عن منهج الله - لابد أن يعرّض الحياة الإنسانية ، ويعرض الإنسان نفسه ، للعطب والدمار ، فى صورة من صور العطب والدمار ..

---

(١) يراجع بتوسع فى هذا الموضوع كتاب « المستقبل لهذا الدين » فصل « الفصام النكد » .

هذه بديهية . . ولكننا نؤثر أن نضعها فى صورة عملية حسية واقعية . . لنفرض أننا كنا نجهل قوانين المادة ، جهلنا بقوانين الحياة ــ والحياة الإنسانية بصفة خاصة ــ ثم أردنا أن نتعامل ــ بجهلنا هذا الكلى أو الجزئى ــ مع المادة ؟ فما الذى كان يقع ؟ النتيجة معروفة . . يقع أن تتلف المادة التى نتعامل معها ــ كليا أو جزئيا ــ إن لم تحطمنا هذه المادة وتدمرنا . . ومثل هذا قد حدث تماما فى الحياة البشرية . .

ولكن التلف والدمار حين يقع فى عالم المادة لا ينشىء آثارا يصعب تداركها ، ولا يحطم أشياء ثمينة غالية مثل « العنصر الإنسانى » و « الحياة الإنسانية » . ولا يتخلف منه ماتخلف عن محاولاتنا علاج شؤون الإنسانية فى معزل عن خالقها العليم بحقيقتها ، الخبير بالنواميس التى تحكم حياتها ، واتصالاتها بهذا الكون الذى تعيش فيه . ولا مثل ذلك التخبط والشقاء والحيرة والقلق ، والتلف والفساد . . ثم التهديد بالدمار الأخير فى نهاية الخط المشؤوم . .

إن هــذه الظواهر النكدة تتجلى الآن فى كل جوانب الحياة البشرية . وتبدو معها التضحيات الهائلة ، والمذابح الرهيبة ، والتقلبات العاتية ، والشقوة التى تسحق أثمن عناصر الكون .. « الإنسان » ..

وسنقف وقفات مجملة أمام نماذج بعينها من تجارب البشرية الذاتيــة ــ فى معزل عن هدى الله ومنهجه للحياة ــ فى تاريخ البشرية من القديم إلى الحديث ، تشير إلى سائر النماذج . مذ كان استقصاؤها متعــذرا . فضلا على أن طبيعة هــذا البحث المجمل لا تحتمله :

هذه النماذج تتناول المسائل الرئيسية الثلاثة فى حياة الإنسان :

١ ــ مسألة النظرة إلى الإنسان وحقيقة فطرته واستعداداته .

٢ ــ مسألة النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين .

٣ ــ مسألة النظم الاقتصادية والاجتماعية .

الانسان وفطرته واستعداداته

« الإنسان » كائن فذ فى هذا الكون . فذ فى طبيعته وتركيبه . وفذ فى وظيفته وغاية وجوده . وفذ كذلك فى مآله ومصيره ..

إنه مخلوق غير مكرر فى جميع الخلائق التى عرفناها ، والتى يحدثنا الله عنها كذلك ولا نراها . ومخلوق بقدر فلم يوجد هكذا مصادفة ولا جزافا . ومخلوق لغاية فلم يخلق عبثا ولا سدى . . وهذا واضح فيما نقلناه من الآيات القرآنية فى الفصل السابق . وفى نظرة الإسلام إلى الإنسان بجملتها . .

وتميز الإنسان بخصائص لا توجد فى عالم الأحياء هو الذى جعل « جوليان هكسلى » فى « الداروينية الحديثة » يتراجع عن الكثير من «الداروينية القديمة » ، التى قررها « دارون». وهو لا يتراجع عنها إلا مضطرا أمام ضغط الحقائق الواقعية التى تحتم هذا التراجع . إذ يعترف بأن الإنسان « حيوان خاص » وأن له « خصائص » لم تلاحظ فى أى حيوان آخر . وأن لهذه الخصائص آثارا متفردة كذلك :

ولندعه هو يتكلم فى فصل من كتابه : « الإنسان فى العالم الحديث » بعنوان «تفرد الإنسان » .

« لقد تأرجح رأى الإنسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه . تفصل بينه و بين الحيوانات هوة سحيقة جدا وحينا آخر هوة صغيرة جدا .

« وبظهور نظرية « دارون » بدأ الخطّار (البندول) يتأرجح عكسيا ، واعتبر الإنسان حيوانا مرة أخرى . . ووصل الخطار شيئا فشيئا إلى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر مابدا أنه النتائج المنطقية لفروض « دارون » . فالإنسان « حيوان » كغيره من الحيوانات . ولذلك فإن آراءه فى معنى الحياة الإنسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس ! والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية . ومن المسلم به أن الإنسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر !

« ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان ، نتيجة المبالغة فى إعطاء الحيوان صفات الإنسانية ، وإنما نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية فى الإنسان . . ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه فى الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمى .

« إن الخطار يتأرجح ثانية : وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى . . وبعد نظرية « دارون » لم يعد « الإنسان » يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا [1] ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفى حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد . . وما هذا المقال إلا محاولة لعرض مركزه الحالى . .

« وأول خصائص الإنسان الفذة ، وأعظمها وضوحا ، قدرته على التفكير التصورى[2] .. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة . وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة[3] . . ومن أهم نتائج تزايد التقاليد ــ أو إذا شئت من أهم مظاهره

---

(١) هذا مجرد رأى لهكسلى بوصفه « داروينيا » وهو طبعا يعز عليه أن يتراجع عن فروض دارون كلية أمام ضغط الحقائق الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل وهو يتظاهر بأنه ثابت على أصول النظرية ! والإنسان يحتوى الكيان الحيوانى من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذى تقوله الداروينية.

(٢) التخيل .　　　(٣) الناشئة من رصيد التجارب الإنسانية .

الحقيقية ـ مايقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات . . وإن العدد والتقاليد لهى الخواص التى هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . . وهذه السيادة « البيولوجية » ـ فى الوقت الحاضر ـ خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .

« . . وهكذا يضع علم الحياة « الإنسان » فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات . . كما تقول الأديان[1] . .

« ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التى لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى ، ومعظمها واضح معروف .

« والإنسان لا مثيل له أيضا كنوع مسيطر . إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ؛ وتجمعت فى أجناس وفصائل عديدة ، ومجموعات أكبر . أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الإنسان فى حدود نوع واحد .

« وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره .

« وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهى تفرد تاريخ تطوره .. ونحن الآن فى مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان فى تطوره . وأما خاصية الإنسان الجوهرية ، ككائن حى مسيطر فهى « التفكير المعنوى » .

« ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة فى خصائص الإنسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود إليها ، ونبحث فيها وفى نتائجها بشىء من الإسهاب . . فأولا يجب

---

(١) بعد اعتراف هكسلى هكذا عاد ليسترد موقفه ،فقال : إن النظرية الدينية لم تكن صحيحة فى تفصيلها أو فى كثير مما تضمنته . ثم أرغمته الحقائق مرة أخرى فختم هذا التراجع بقوله : « ولكن كان لها أساس جيولوجى متين » . وهكذا يتأرجح بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الإلحاد والمادية !

ألا يعزب عن بالنا ، أن الفرق بين الإنسان والحيوان فى العقل أعظم بكثير مما نظن عادة .. وكلنا على علم بقوة الغريزة فى الحشرات . . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة. وليست الثدييات بأفضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ . ولابد أن يكون سلوك الحيوانات عرفيا ـ أى أنه ثابت فى حدود ضيقة ـ أما الإنسان فقد أصبح فى سلوكه حرا نسبيا .. حرا فى الأخذ والعطاء على حد سواء . . ولهذه الزيادة فى المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .. والإنسان أيضا فريد فى بعضها . فقد أدت هذه المرونة مثلا إلى كون الإنسان هو الكائن الحى الوحيد ، الذى لابد له أن يتعرض للصراع النفسى .. ومع ذلك فطبقا للآراء الحديثة توجد فى « الإنسان » أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهى التى يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع .

« وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان ، والتى يمكن تسميتها « نفسية » أكثر منها « بيولوجية » تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى » قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية » التوحيد النسبى لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة » وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان [1] . وهى بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية

(١) نحن ننقل نصوص هكسلى كما هى ـ بغض النظر عما نخالفه فيه فى نشأة الإنسان ..

البحتة والمواهب الموسيقية ، والتقدير والإبداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالى ..

« ولكن لا يكفى هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط . ففى الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنسانى وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . وكذلك فهى فذة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد ..

« و بذلك يكون الإنسان فريدا فى أحواله أكثر مما نظن الآن » [1] .

كذلك يقول العالم الأمريكى : « ا . كريسى موريسون » فى كتابه : « Man does not stand alone » الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكى بعنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » :

« إن القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة (الجينات) . . ص ١٤٥

« لقد رأينا أن « الجينات » متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات فى خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهى تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التى لكل شىء حى . وهى تتحكم تفصيلا فى الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماما كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان » (ص ١٤٧)

... « ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك » .

« والإنسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل « السيميا » (الأورانجتان والغوريلا والشمبانزى) ولكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهانا

---

(١) من كتاب « الإنسان فى العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب .. مقتطفات متفرقة .

على أننا من نسل أسلاف سيمائية (من القرود) أو أن تلك القرود هى ذرية منحطة للإنسان.

ولا يمكن أحداً أن يزعم أن سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Hoddock) وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة... (ص ١٤٢)

« إن ارتقاء الإنسان الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد ابتداعى .

« وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً . ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار ، لا فائدة منه . والعلم لا يعلل من يتولى إدارته . وكذلك لا يزعم أنه مادى .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره، ولا يزال الإنسان فى طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه « بالروح » وهو يرقى فى بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة .

« وإذا صح هذا التعليل — ويبدو أن المنطق الذى يسنده لا يمكن دحضه — فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التى لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكسب أهمية لم يحلم بها أحد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا ، أول جهاز مادى أضيف إليه قبس من نور الله . وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير ، التى يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون فى اشتباكاته ، ويشعر شعوراً غامضاً بعظمة الله ماثلة فى خلقه » (ص ١٨٧ — ١٨٨)

« إن أية ذرة أو جزيئة (Atom Molecule) لم يكن لها فكر قط ، وأى اتحاد

للعناصر لم يتولد عنه رأى أبدا . وأى قانون طبيعى لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعا لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئا تطيعه جزيئات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحى ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات ؟ أجل . وماذا أيضا ؟ شيء غير ملموس ، أعلى كثيرا من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء . ومختلف جدا عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو ـ فيما نعلم ـ ليست له قوانين تحكمه . إن « روح الإنسان هى سيدة مصيره » ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانونا للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه . فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا لشيء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو إنما يزعم زعما لا يقوم عليه برهان . . إنه شيء موجود ، يظهر نفسه بأعماله ، وبتضحياته ، وبسيطرته على المادة ، وبالأخص بقدرته على رفع الإنسان المادى من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . . هذه هى خلاصة القصد الربانى . وفيها تفسير للاشتياق الكامن فى نفس الإنسان ، للاتصال بأشياء أعلى من نفسه . وفيها كشف عن أساس حافزه الدينى . . وهذا هو الدين » . . (ص ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

وتفرد الإنسان فى هذا الكون بطبيعته وتركيبه ، وفى وظيفته وغاية وجوده ، وفى مآله ومصيره ، هو الذى يقرره التصور الإسلامى عن الإنسان فى نصوصه الكثيرة ، فكلها تقرر أن هذا الإنسان ، خلق خلقة فذة خاصة مقصودة ، وعينت له وظيفة ، وجعلت لوجوده غاية ، وأنه كذلك مبتلى بالحياة مختبر فيها ، محاسبٌ فى النهاية على سلوكه فيها ، هذا السلوك الذى يقرر جزاءه ومصيره . . .

نجد هذا فى قصة آدم :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . . الخ » (البقرة : ٣٠)

« وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (ص : ٧١ – ٧٢)

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ... (الإسراء : ٧٠)

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ... (التين : ٤)

ونجده فى نصوص شتى :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ... (الذاريات : ٥٦)

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ... (الملك : ٢)

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » ... (طه : ١٢٣ – ١٢٤)

* * *

والإنسان كائن معقد شديد التعقيد . سواء فى تركيبه العضوى ، أو تركيبه العقلى والروحى ، كما هو معقد فى أوجه نشاطه المختلفة ، التى لا يعرف أحد حتى اليوم طبيعتها ، ولا حقيقة الارتباطات بينها ، إذ كل ما أمكن هو ملاحظة ظواهرها وسطوحها .

وهذا التعقيد لا يبدو فى كيان الإنسان ككل فحسب ، بل إنه ليتجلى كذلك فى فى كل خلية حية من خلاياه التى لا تحصى ..

وإلى هـذه اللحظة لم يكشف أحد سر تـكوين الخلية . . وحتى لو تسنى كشف عناصر تـكوينها المادى ، فإن عنصر الحياة الذى فيها مجهول الـكنه والـكيفية . ويبدو أنه سيظل كذلك . وليست هذه سوى الخطوة الأولى فى الطريق الطويل لمعرفة أسرار الخلية الحية .. إن هذه الخلية تتصرف كما لو كانت كائنا عاقلا رشيدا يدرك تماما وظيفته المقبلة ، كما يدرك دوره مع بقية الخلايا ، ويمضى فى طريقه مهتديا لا يضل أبدا ، لأداء دوره هذا ، فى دقة وإصابة لا يتمتع بهما العقل البشرى ذاته !

وعن هذه الأسرار ، وأسرار الارتباطات بين مركبات الـكائن البشرى ووظائفه وأوجـه نشاطه المختلفة يقول « الدكتور ألـكسيس كاريل » ماسبق أن صدرنا به الفصل الأول . وما نعيد هنا فقرات منه لضرورة وضعها تحت العين فى هذه اللحظة :

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محددة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة . . فنحن لا نعرف الآن الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزيئات المواد الـكيماوية لـكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

« كيف تقرر الجينس (ناقلات الوراثة) الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفـات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

« كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهى كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذى قدر لهـا أن تلعبه فى حياة المجموع . وتسـاعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط معقد فى الوقت ذاته .

« ماهى طبيعة تـكويننا النفسـانى والفسيولوجى ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور . . ولـكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزا .

«إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية . . إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية ، التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة فى الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية ؟ الخ الخ » .

وهذا التعقيد فى تركيب الكائن الإنسانى ، وفى وظائفه وأوجه نشاطه ، هو الذى يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الأساسية فى خلافة هذه الأرض ، كما أنه هو الذى يتسق مع طبيعة نشأته التى حدثنا الله عنها :

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ... (ص : ٧١ ـ ٧٢)

فالكينونة التى تنبثق ابتداء من الطين والنفخة من روح الله ـ على ما بينهما من آماد وآفاق لا تحد ـ هى التى يتوقع فيها مثل هذا التعقيد الشديد ، الذى يستعصى على العقل البشرى ، لأنه فوقه وأكبر منه . على حين أنه يسيرٌ يسيرٌ على الله سبحانه :

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم » ... (النجم : ٣٢)

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » (الملك : ١٤)

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» ... (ق : ١٦)

* * *

والإنسان ـ بعد هذا وذلك ـ كائن يؤلف كل فرد فيه بذاته عالما فذا مفردا لا مثيل

له فى سائر أفراده . على كل مايجمع أفراد الجنس كله من الخصائص « الإنسانية » المشتركة .. وهذا مما يزيد الأمر تعقيدا ، ويزيد دراسة « الإنسان » صعوبة ، بل تعذرا ، دون المعرفة الكاملة بالسمات المميزة لكل فرد على حدة — فى فرديته المتميزة — على فرض أنه أمكن الوصول — فى ملايين السنين — إلى معرفة كل التركيب العضوى والنفسى العام للجنس البشرى . .

وفى هذه الفردية يقول دكتور كاريل :

« إن الفردية جوهرية فى الإنسان . إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا . . وهى تجعل « الذات » حدثا فريدا فى تاريخ العالم . . إنها تطبع الجسم والشعور . كما تطبع كل مركب فى الكل بطابعها الخاص . وإن ظلت غير منظورة» ... (ص ٢٨١)

« يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم وإشاراتهم وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة . ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة فى مظهر الأفراد ، إلا أنه يمكن دائما معرفة كل فرد — كما أثبت برتلون منذ أمد بعيد — بواسطة أبعاد أجزاء معينة من هيكله .. وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد . ومن ثم فإن بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان » . . .

(ص ٢٨٢)

« وعلى كل حال فإن تكوين الجلد جانب واحد فقط من فردية الأنسجة » .

« وقد تظهر فردية الأنسجة نفسها بالطريقة التالية :

« طُعم سطح جرح بقطع من الجلد ، أخذ بعضها من المريض نفسه ، والبعض الآخر من صديق أو قريب . فلوحظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذى أخذ من المريض نفسه قد

تماسك مع الجرح، و بدأ ينمو ، فى حين أن الجلد الذى أخذ من الأشخاص الآخرين آخذ فى التراخى والانكماش . وسرعان ماعاش الأول ومات الثانى » ... (ص ٢٨٣)

« إن القاعدة أن أنسجة أى شخص ترفض قبول أنسجة شخص آخر .. وحينما تخيط الأوعية ، و يمر الدم ثانية فى كلية مطعمة ، فإن هـذا العضو يفرز البول مباشرة ، و يكون تصرفه طبيعيا فى بادئ الأمر . إلا أنه لا تـكاد تمضى أسابيع قليلة حتى يظهر الزلال أولا ، ثم الدم فى البول ، وسرعان ماتصـاب الـكلية بمرض أشبه بالالتهـاب يؤدى إلى ضمور الـكلية سريعا .. ومع ذلك لو أن العضو المطعم أخذ من الحيوان نفسه لعاد إلى تأدية وظيفته بصفة دائمة . إذ من الواضح أن الأخلاط تكتشف فى الأنسجة الغريبة ، اختلافات تركيبية معينة ، لا يمكن اكتشافها بأى اختبار آخر. إن الخلايا محددة بالنسبة للأشخاص الذين تتبعهم . ولقد حالت هذه الخاصية حتى الآن دون التوسع فى استعمال تطعيم أو ترقيع الأعضاء لأغراض علاجية » ... (ص ٢٨٣)

« فمن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الأرض ، كان تركيبهما الـكيماوى متماثلا . وترتبط شخصية الأنسجة التى تدخل فى تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة مازالت غير معروفة حتى الآن . ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها فى أعماق ذاتنا .

« وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة . فهى موجودة فى العمليات الفسيولوجية . كما هى موجودة فى التركيب الـكيماوى للأخلاط والخلايا . ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحـداث العالم الخارجى . . مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد ، وهجمات الميكروبات والفيروسات » ... (ص ٢٨٦)

« تمتزج الفرديات العقلية والتركيبية والأخلاطية بطريقة غير معروفة . وتحمل كل منها للأخرى العلاقات نفسها التى تحملها وجوه النشاط الفسيولوجى ، والعمليات المخية والوظائف العضوية .. إنها تهبنا وحدانيتنا . وتجعل كل إنسان أن يكون نفسه ، وليس شخصا آخر » .. (ص ٢٨٧)

« كل فرد يدرك أنه فريد . وهذه الوحدانية حقيقية » .. (ص ٢٨٩)

« إن فحص الفردية الفسيولوجية فحصا كاملا ، وقياس أجزائهـا المركبة غير ميسور حتى الآن ، كما أننا لا نستطيع تحديد طبيعتها بالدقة ، وكيف يختلف كل فرد عن الآخر . بل إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه ، فضلا عن أننا أكثر عجزا عن اكتشاف إمكانياته » . . . (ص ٢٩٠)

« وحقيقة الأمر أن السيكولوجيا لم تصبح بعد علما . لأن الفردية وإمكانياتها ليست قابلة للقياس حتى الآن » ... (ص ٢٩١)

* * *

هذه الحقائق الأساسية الثلاثة : حقيقة أن الإنسان كائن فذ فى هذا الكون . وحقيقة أن الإنسان كائن معقد شديد التعقيد . وحقيقة أن الإنسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفراده .

هذه الحقائق تقتضى منهجا للحياة الإنسانية يرعى تلك الاعتبارات كلها . يرعى تفرد «الإنسان» فى طبيعته وتركيبه . وتفرده فى وظيفة وغاية وجوده ، وتفرده فى مآله ومصيره. كما يرعى تعقده الشديد وتنوع أوجه نشاطه وتعقد الارتباطات بينها . ثم يرعى « فرديته » هذه مع حياته « الجماعية » .

وبعد هـــذا كله يضمن له أن يزاول وجوه نشاطه كلها ، وفق طاقاته كلها . بحيث لا يسحق ولا يكبت ، كما لا يسرف ولا يفرط . وبحيث لا يدع طاقة تطغى على طاقة ، ولا وظيفة تغطى على وظيفة .. ثم ــ فى النهاية ــ يسمح لــكل فرد بمزاولة فرديته الأصلية مع كونه عضوا فى جماعة ..

ولـــكن ــ نظرا لجهالتنا بالإنسان ــ فإن مناهج الحياة التى اتخذها البشر لأنفسهم لم تستطع ــ وهذا طبيعى ــ مراعاة هذه الاعتبارات المتشعبة المتشابكة المتفاوتة المتناسقة . .

والمنهج الوحيد الذى راعى هذه الاعتبارات كلها كان هو المنهج الذى وضعه للإنسان خـــالقه ، العليم بتكوينه وفطرته ، الخبير بطاقاته ووظـــائفه ، القادر على أن يضع له المنهج الذى يحقق غاية وجـوده ويحقق التوازن فى أوجـه نشـــاطـه ، ويحقق فرديتـه وجماعيته كذلك ..

ومامن شك أن الأمر من الدقة والخطورة والتشابك والتعقد بحيث يحتاج إلى علم إله، وحكمة إله ، وعدل إله ، وأنه ــ من ثم ــ لا يصنعه إلا الله[1] ..

فلننظر الآن نظرة سريعة إلى تقلب نظرة الإنسان لنفسه ، وتخبطه كذلك بنفسه ، حين استقل بأمر نفسه بعيدا عن هدى الله ، واتبع هواه ..

* * *

فى الأساطير الإغريقية كان « الإنسان » ندا للآلهة . ينازعها السلطة والمعرفة ، وإن كانت هى تبطش به وتقسو عليـــه . ولـــكنه هو لا يستسلم ولا يذعن . وحتى فى حالة انتصارها عليه ، فإنه يستبقى فى نفسه السخط والإنـــكار والإصرار !

---

(١) عالجت هذا الموضوع بتوسع فى فصل « حقيقة الإنسان » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وفصل « نظام إنسانى » فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » .

فلما جاء العهد الرومانى ــونبدأ به باعتباره الأساس الحقيقى للحضارة الأوربية القائمة ــ بهت ظل الآلهة ، وبقى الإنسان يعبد ذاته وشهواته . وهو على كل حال لم يكن يسمح للآلهة بالتدخل فى تصريف حياته الأرضية . وإن كان يسمح لها بالتكهن على ألسنة الكهان ؛ ويستبقيها كعرف اجتماعى لا ضرر منه ، ويستمتع بمباهج الاحتفالات بمواسمها فى طلاقة من كل قيد . على طريقة الرومان فى المتاع .

ولما سيطرت النصرانية ــ كما تصورتها الكنيسة ــعلى الدولة الرومانية ، وُسم الإنسان بالخطيئة ، ونكس رأسه بالذل . وبدا ذلك فى التماثيل التى أنشئت فى ظل هذه النظرة إلى الإنسان ، كما بدا فى سواها من وسائل التعبير .

ومع أن النظرة النصرانية إلى الإنسان تحمل تكريم الله لهذا الجنس ، إلا أن خطيئة آدم ــ كما تصورها الكنيسة ــ قد دمغت الجنس كله بالإثم . حتى جاء المخلّص « ابن الإنسان » « المسيح » « الرب » « الابن » . . . إلى آخره . . . فكفّر عن هذه الخطيئة. ولكن هذا لم يرفع جبين الإنسان ، فقد كان عليه أن يكفّر بالذل والهوان والتقشف والعذاب طول حياته ، لكى يلحق بالمخلّص ، ويتحد فيه ، وينال الغفران .

وكذلك اعتبرت ميوله الفطرية رجسا ودنسا ، وعلاقاته الجنسية قذرا ووسخا ، وشعوره بذاته إثما وخطيئة . . وكان من وراء هذه النظرة ماسنفصله بعد قليل من الرهبنة ، ورد الفعل للرهبنة فى أوربا التى لم تستقر على حال .

ولما وقع رد الفعل ، وثارت أوربا على الكنيسة ، وعلى التصورات الكنسية ، وعلى المفهومات الدينية كلها بالإجمال ، جدّت مع الثورة نظرة جديدة للإنسان . وبالذات إلى « العقل » فى الإنسان .

لقد جعل هذا « العقل » إلها فى « عصر التنوير » فى منتصف القرن الثامن عشر

الميلادى ، فهذا العالم الخارجى إنما هو من خلق العقل وصنعه . وللعقل حق السيطرة على كل جوانب الحياة ، والقطع فيها برأيه الذى يراه . والإنسان ــ من ثم ــ حر فى العمل حرية تامة ، لا يشوبها تحديد من غــير الإنسان نفسه . . وبهذا انتهى عصر تدخل الدين فى الحياة .

ثم انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر . وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة لهذا العقل وللإنسان معه . إذ جاءت « الفلسفة الوضعية » تعلن أن المادة هى الإله ! فهى التى تنشئ هذا العقل ، وهى التى تطبع فى حس الإنسان ما تراه !

بذلك تضاءل العقل ، وتضاءل معه « الإنسان » . لم يعد هــذا الإنسان إله نفسه ، ولا إله شىء من الأشياء ، إنما أصبح من مخاليق « الطبيعة » ومن عبيد هذا « الإله » !

ثم جاء « دارون » بحيوانية الإنسان . حيث نشر كتابه : « أصل الأنواع » فى سنة ١٨٥٩ ، وكتابه : « أصل الإنسان» فى سنة ١٨٧١ .

وفقد الإنسان كل ما كان التصور الدينى قد أسبغه عليــه من تـكريم وتفرد وخصوصية . كما فقد كل ما كانت الفلسفة قد خلعته عليــه فى عصر التنوير من إيجابية واستقلال وسيطرة . وعاد حيوانا ــ كـكل حيوان آخر ــ ولو أن له السيطرة اليوم ، فإن هذه السيطرة قد تؤول إلى قط أو فأر فى يوم من الأيام . كما يحكى جوليان هكسلى !

ثم تمت الضربة القاضية على يد « فرويد » من جانب ، و « كارل ماركس » من الجانب الآخر . . الأول يرد دوافع الإنسان كلها إلى الميول الجنسية ، ويصوره غارقا فى وحل الجنس إلى الأذقان . . والثانى يرد تطورات التاريخ كلها إلى الاقتصــاد ، ويصور الإنسان مخلوقا ضئيلا سلبيا ، لاحول له ولا قوة أمام إله الاقتصاد . بل إله أداة الإنتاج !

***

هذه النظرة إلى الإنسان ، التى لم تستقر قط ، ولم يعتدل بها الميزان فى أوربا فى يوم من الأيام ، كان لهـا أثرها فى التخبط والاضطراب فى الأنظمة والأوضاع ، وفى السلوك الفردى والسلوك العام . إذ أنه لا يمـكن الفصل بين تصور الإنسان لنفسه ، وسـلوكه الواقعى فى الحياة .

وكذلك جاء التخبط فى النظرة إلى سلوك الإنسان تجاه ميوله الفطرية ، واستعداداته وطاقاته ، وتجاه الأخـلاق المرضية من المجتمـع ، والتى تطبـع سلوك الأفراد فى شتى المجتمعات .

لقد ظلت أوربا تتراوح بين الإفراط والتفريط . بين الـكبت والتهور . بين سحق الميول الفطرية والطاقات الطبيعية فى الإنسان أو إطلاقها بغـير عنان . . ولم تلتزم جادة الاعتدال أبدا فى تاريخها الطويل . ولم يقع التوازن فى تصوراتهـا ولا فى حياتها تبعا لذلك فى وقت من الأوقات . .

ونبدأ بملاحظة واقع أوربا ــ فى هذا الجانب ــ منذ أيام الدولة الرومانية . .

يصور « درابر » الأمريكى فى كتابه « الدين والعلم » حالة الدولة الرومانية قبيل دخولها فى النصرانية هذه الصورة البارعة :

« ولمـا بلغت الدولة الرومانية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت فى فساد الأخلاق، وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات . بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتارا . وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان ، إلا ليبعث على شهوة الطعام .

ولم يـكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة . كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان كاسيات عاريات ، غير متعففات، تدل دلالا . . ويزهو فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا يتشحط فى دمه . وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة . لأنه بهـا يقدر الإنسان على أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين . وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع . وأن رأس الدولة الرومانية هو رمز لهـذه القوة القاهرة ، فـكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك . ولـكنه كان طلاء خداعا ، كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها » [1] .

ويصف الأستاذ أبو الأعلى المودودى حالة المجتمع الرومانى فى هذه الفترة يقول :

« ولمـا تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب فى المجتمع الرومانى إلى هـذا الحد ، اندفع تيار من العرى والفواحش وجموح الشهوات . فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعرى المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء . ومن جراء هـذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات . وانجذبت إليها نساء البيوتات . وتمادى الأمر فى ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص فى عهد القيصر « تانى بيرس » (١٤ ـ ٣٧ م) لمنع نسـاء البيوتات من احتراف مهنة المومسات

---

(١) نقلا عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن الحسنى الندوى ص ١٣٩ ، ١٤٠ من الطبعة الثانية .

وصناعتهن النافقة . ونالت مسرحية « فلورا Flora » حظوة عظيمة لدى الروم ، لكونها تحتوى على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء فى مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد . . أما سرد المقالات الخليعة ، والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضيا مقبولا لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذى كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى هو الذى يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف . وهو الذى يتبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة ، غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات[1] » .

* * *

ثم حدث أن استطاعت النصرانية ـ كما شكلها بولس ـ أن تمسك بزمام الدولة الرومانية ، وأن تولى الإمبراطور قسطنطين فى سنة ٣٠٥ ميلادية ، وأن تصبح لها الكلمة العليا فى الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف .. فما الذى حدث ؟

حدث ما يصوره درابر بقوله :

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية فى الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام . وكذلك كان قسطنطين . فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره (٣٣٧ م) .

« إن الجماعة النصرانية . . وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ..

---

(١) كتاب « الحجاب » للسيد « أبو الأعلى المودودى » الترجمة العربية للأستاذ محمد كاظم السباق ص ٢٣ ، ٢٤ .

هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنيـة) قضاء باتا ونشر عقائده بغير غبش » .

« و إن هذا الإمبراطور الذى كان عبدا للدنيا ، والذى لم تـكن عقائده الدينية تساوى عنده شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحز بين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ أن يوحدهما ، و يؤلف بينهما حتى إن النصارى الراسخين أيضا لم ينـكروا عليه هـذه الخطة . ولعلهم كانوايعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة . وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها »[1] .

ولم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية أن تنتزع الرومان من الحياة البهيمية الداعرة التى كانوا يزاولونها فى وثنيتهم .. عندئذ عمدت إلى الطرف المقابل .. الرهبانية .. الرهبانية التى تـكبت الميول الفطرية والطاقات الطبيعية ، والوظيفة الأساسية للإنسان فى الأرض .. التعمير والخلافة .. ثم لا تفلح طبعا فى قتل هذه القوى الضخمة العميقة الجذور فى الـكينونة البشرية . ولـكنها تفلح فقط فى إحالة الحيـاة إلى شد وجذب بين الدوافع والـكوابح ، و إلى صراع أليم فى داخـل الـكيان البشرى ، و إلى دمار رهيب فى الحيـاة الاجتماعية والعمرانية . .

و يصف ليكى فى كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » ما وصلت إليه الرهبانية يقول :

« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستفحل أمرهم ،واسترعوا الأنظار، وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولـكن ممـا يلقى الضوء على كثرتهم ، وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفا من الرهبان ، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ،

(١) عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وكان الراهب « سرابين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عـدده في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر » ..

وأفاض « ليكى » وغـيره فى وصف حالة الرهبان ؛ وبشاعة بعدها عن الفطرة الإنسانية ، والإيجابية الإنسانية ؛ والغلو فى الهرب من طيبات الحيـاة ؛ ومكافحة نشاط الفطرة ، مما نـكتفى فيـه بتلخيص جيد واف للأستاذ أبى الحسن الندوى فى كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » تحت عنوان « عجائب الرهبان » جاء فيه :

« ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا فى الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب . فحـدثوا عن الراهب ماكاريوس (Macarius) أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ، ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد . وكان صاحبه الراهب « يوسيبيس » (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح ، وقد عبد الراهب يوحنا (ST.Jhon) ثلاث سنين قائما على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طوال هـذه المدة ، فإذا تعب جدا أسند ظهره إلى صخرة . وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما ، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة ، والمقابر ، ويأكل كثير منهم الـكلأ والحشيش . وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون من غسيل الأعضاء . وأزهد النـاس عندهم وأتقاهم أبعـدهم عن الطهارة ، وأوغلهم فى النجاسات والدنس ، ويقول الراهب (اتهينس) : إن الراهب (أنتونى) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره . وكان الراهب (أبراهام) لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة . وقد قال الراهب الإسكندرى بعد زمن متلهفا : واأسفاه لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه حراما ، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات . وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ويختطفون

الأطفـال ، ويهربون إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبيان من حجور أمهـاتهم ، ويربونهم تربية رهبانية ، والحـكومة لاتملك من الأمر شيئاً، والجمهوروالدهماء يؤيدونهم، ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم . وعرف كبار من الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت ، إذا رأين الراهب أمبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملـكون من أولادهم شيئا ، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس .

« وكان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال القوة والمروءة التي كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوبا ورذائل . وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح ، والصراحة ، والسماحة ، والشجاعة والجراءة ، وهجروها . وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعم الـكنود والقسوة على الأقارب . فـكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانا ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد . فيخلفون الأمهات ثـكالى ، والأزواج أيامى ، والأولاد يتامى ، عالة يتـكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة ، لا يبالون ماتوا أو عاشوا . وحكى (ليكى) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب .

« وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ــ ولو كن أمهات أو أزواجا وشقيقات ــ تحبط أعمالهم وجهودهم الروحيـة . وروى (ليـكى) من هــذه المضحكات المبـكيات شيئاً كثيرا » [1] .

---

١ ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤٢ــ١٤٣ .

فماذا كانت ثمرة هـذا الغلو فى مجافاة الفطرة ، ومحاولة سحق الميول والاستعدادات الفطرية العميقة فى الـكينونة الإنسانية ؟

إنها لم تـكن انتصارا لهذا الانحراف العاتى ، فهذا مستحيل والفطرة أغلب . ولم تـكن اعتدالا وتوازنا فى جموح المادية الشهوانية الرومانية . وإنما كانت خليطا من هذا وذلك . يفسد الحياة كلها إفسادا .

كانت هذه الصورة التى يرسمها (ليكى) فى كتاب : « تاريخ الأخلاق فى أوربا » .

« إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتملق فى مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء ، والمسابقة فى زخارف اللباس والحلى والزينة . . فى حدتها وشدتها . . كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى ، والفجور الأقصى . وإن المدن التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس . وكان الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ، ولـكنه أمن واطمأن لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تـكفر عن جميع أعمال الإنسان . . لقد نفقت سوق المـكر والخديعة والـكذب ، حتى فاق هذا العصر فى ذلك ، عصر القياصرة . ولـكن الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة كانت تؤدى إلى انحطاط فى حرية الفـكر والحماسة القومية » .

* * *

ثم كانت الطامة الـكبرى ، يوم وقفت الـكنيسة بما تبنته من آراء « علمية » خاطئة

وخرافات وأساطير شائعة ، واعتبرته جزءا من الدين والعقيدة . . يوم وقفت بهـذا الغثاء فى وجه المنهج العلمى التجريبى الذى تسرب من الجامعات الإسلاميـة إلى التلامذة الأوربيين ، وفى وجه النتائج « العلمية » الحقيقية التى أخذ هذا المنهج والتلامذة الأوربيون العلماء يصلون إليهـا . . وحرقت العلمـاء ، وطاردتهم ، وأنـكرت مناهجهم ونتـائج تجار بهم جميعا .

كانت هذه هى الطامة الـكبرى . إذ جمح العلماء ــ ثم الجماهير ــ جموحا مضادا لجموح الـكنيسـة ، لا يقف عند حد الاعتدال أبدا . . .

وتلا ذلك النظريات والمذاهب التى أشرنا إليها ، جامحة فى تلويث الإنسان وتحقيره ، ومن ثم إباحة كل خساسات الشهوات الجامحة له ، بدون حدود ولا قيود .

وظلت الموجة العاتية فى مدها حتى اللحظة الحاضرة . وانساحت من أوربا إلى وليدتها أمريكا ، ثم انساحت منها إلى جنبات الأرض ، وماتزال ماضية فى طريقها . عاصفة مدمرة، تنفخ فيها أبواق الصحافة والسينما والمسرح والأدب والتصوير والنحت . . . وسائر الفنون ، وسائر أجهزة الإعلام والتوجيه . . ومن ورائها جميعا « بروتوكلات صهيون » التى تنص على أن هذا كله هدف اصيل للصهيونية العالمية ، لتدمير العالم ــ غير اليهودى ــ و إصابته بالانحلال ؛ ليسهل بذلك إخضاعه لحـكم صهيون !

وما تزال البشرية تهوى إلى هاوية الدمار الأكيد . وعجلة الحياة جامحة مجنونة . تلهبها سياط الأجهزة المتعددة . حتى يأذن الله ، فتتسلم القيادة يد غير تلك اليد الرعناء المجنونة الشاردة المحمومة .

المرأة وعلاقات الجنسين

إن التخبط فى النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين ، والأرجحة العنيفة بين الغلو والتفريط والتقلب من طرف إلى طرف ، والشد والجذب الذى لا يستقر على طريق وسط ، ولا يتسق مع فطرة ولا خلق . . إن هذا كله لا يقل عن نظيره فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته .

ولا يقل أثر الاضطراب والتخبط فى النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين فى حياة المجتمع الإنسانى ، عن أثر التخبط والاضطراب فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، فكلاهما ينبع من معين واحد : هو الجهل بحقيقة هذا الكائن بنوعيه ، ومن الهوى كذلك والضعف ؛ ثم الانقطاع ـ مع هذا الجهل والهوى والضعف ـ عن منهج الله وهداه .

ولإدراك أهمية هذه المسأله ـ مسألة التخبط فى النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين ـ لابد لنا هنا من استصحاب جميع المقدمات التى صدرنا بها الحديث عن « الإنسان وفطرته واستعداداته » . . فهى بنصها هناك تنطبق على الموضوع هنا . فلابد أن نكون على ذكر منها ، وأن نعيد مراجعتها فى الصفحات السابقة ، قبل المضى فى موضوع المرأة [1] .

ثم نضيف إلى تلك المقدمات أن الحياة البشرية يستحيل أن تستقيم وتعتدل وتطمئن ، إذا كانت علاقة الجنسين غير مستقرة ، وإذا كانت تتأرجح ـ تبعا للنظرة إلى المرأة ـ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ؛ أو إذا كانت تستند إلى الجهل والضعف والهوى .

---

(١) من ص ٣٧ إلى ص ٤٩ .

إن هـذه العلاقة هى التى يقوم عليها بناء العمران ـ هى وقاعدة النظام الاقتصادى وتوزيع الثروة ـ كما يقوم عليها بناء الأخـلاق الإنسانية فى مجالات واسعة متشابكة . . والنظرة إلى هـذه العلاقة ، وإلى العـلاقات الاقتصادية كذلك ، فرع عن النظرة إلى « الإنسـان » التى أفضنا فيها بما تسمح به حدود هذا البحث المجمل فى الصفحات السابقة . . ولـكنها تحتاج إلى مزيد من الإيضاح خاص بها لضخامة أهميتها .

لقد عنى الإسلام ـ منهج الله للحياة الإنسـانية ـ بتصحيح الفطرة إلى المرأة ، وبإقامة العلاقة بين الجنسين على أساس من حقائق الفطرة ، وبتوضيح هـــذه العلاقة فى كل فرع من فروعها النفسية والعملية ، بحيث لا تضطرب ولا تتأرجح ، ولا يكتنفها الغموض فى زاوية من زواياها . .

عنى ـ أولا ـ ببيان وحـدة الزوجين وتساويهما (من الناحية الإنسانية) ليقضى على جميـع النظريات الخاطئـة التى كانت تزعم أن المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجـل . .

« يا أيها الناس اتقوا ربـكم الذي خلقـكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ... » (النسـاء : ١)

وعنى ـ ثانيا ـ ببيان وحـدة الزوجين وتساويهما (من ناحيـة علاقتهما بربهما وجزائهما عنده) :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .. » (آل عمران: ١٩٥)

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين

والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » ... (الاحزاب : ٣٥)

وعنى ــ ثالثا ــ ببيان نوع الصلة بين شِقى النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، وما يختص منها بالمجتمع الإنسانى كله . .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ... (الروم : ٢١)

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ... (البقرة : ١٨٧)

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ... (البقرة ٢٢٣)

وعنى ــ رابعا ــ بتنظيم الصلة بين الجنسين فى كل أحوالها وأطوارها ، وما يشتركان فيه ، وما ينفرد به كل منهما ــ وفقا لتكوينه الفطرى ووظيفته فى المجتمع الإنسانى القائم عليهما كليهما ...

« ا » فبين حقهما معا ــ فى أصل الملكية والكسب والميراث ــ مع خصوصية كل منهما فى بعض الفروع . وذلك للقضاء على جميع النظريات والأنظمة الخاطئة التى كانت تحرم المرأة حقها هذا :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » ... (النساء : ٣٢)

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضا » . . . (النساء : ٧)

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ... (النساء : ١١)

« ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ـ إن كان له ولد ـ فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس » ... (النساء : ١١)

« وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت، فلكل واحد منهما السدس » ... (النساء : ١٢)

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » ... (النساء : ٤)

« ب » وبين نظام قيام الأسرة ، ونظام التعامل بينهما فى الأسرة ، وحقوق كل منهما على الآخر ، وحقوق الأطفال الناشئين ثمرة التقائهما كذلك .

فالعلاقة تبدأ زواجا بمهر .

« وأحل لكم ـ ماوراء ذلكم[1] ـ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ـ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة . ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما » . . (النساء : ٢٢)

والمرأة لا تورث كالمتاع ولا تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها لتفتدى نفسها من أهل الزوج ـ ولا تمسك بعد الطلاق ضرارا حتى تفتدى نفسها من الزوج ـ كما كان الحال فى الجاهلية :

« ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ـ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ـ وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم

---

(١) أى فيما عدا المحرمات المذكورات فى آيات سابقة .

إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ ! » . . .

(النساء : ١٩ ـ ٢٠)

وللرجل القوامة فى البيت وعليه الإنفاق . وله مزاولة حقوق القوامة فى المحافظة على كيان الأسرة من التفكك فى مهب النزوات العارضة ، والمحافظة على العش الذى تتعلق به حقوق الأطفال ، وحقوق المجتمع البشرى الذى يعتمد على مؤسسات الأسرة فى نموه الاجتماعى ورقيه ..

«الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا » . (النساء : ٣٤)

فأما حين يخشى على مؤسسة الأسرة التصدع والانهيار فهناك إجراءات أخرى :

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها . إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » ... (النساء : ٣٥)

وحين لا تجدى هذه المحاولة فهناك الطلاق إذن ليبحث كل منهما عن شريك يقيم معه مؤسسة الأسرة على أساس أقوى :

« وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » . . .

(النساء : ١٣٠)

والطلاق شروطه وعدد مراته ونظام المراجعة فيه ونظام النفقة . . كل شىء مبين بوضوح . وليس هنا مكان تفصيله .

وللأطفال حقوقهم عند تفرق الوالدين :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ـ لمن أراد أن يتم الرضاعة ؛ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلف نفس إلا وسعها . لا تضارّ والدة بولدها ؛ ولا مولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصالا[1] عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم ـ إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ـ واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير ... »

(البقرة : ٢٣٣)

* * *

ولا نستطيع أن نمضى أكثر من هذا فى تفصيل النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين فى المنهج الإلٰهى . فقد أفردنا له فصلا كبيرا فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » . فحسبنا أن نشير إلى أن هذا الأمر مبين بوضوح ودقة وتوكيد ـ فى كل جزئية من جزئياته ـ وأنه كله مبنى على حقائق الفطرة فى تكوين الجنس الإنسانى أولا ، وفى تكوين كل من زوجيه ثانيا . وأن توزيع الاختصاصات بينهما مراعى فيه دقائق الفطرة ، التى يعلم بها بارئها ، ولا يعلم الإنسان عنها إلا قليلا . فجهالتنا بها مطبقة كجهالتنا بالإنسان كله !

ولكن الذى ينبغى توكيده ـ فى اختصار ـ هو أن طبيعة نظرة الإسلام إلى الإنسان لا تسمح بأن تكون العلاقة بين الجنسين هى مجرد العلاقة الحيوانية القائمة بين أزواج الحيوان . فالإنسان مخلوق فذ فى تكوينه . فذ فى غاية وجوده . فذ فى مآله ومصيره . . وهذه الخصوصية من شأنها أن تجعل لعلاقات الجنسين فيه غاية أبعد وأشمل وأكبر من

---

(١) فصالا : فطاما للطفل .

غاية الالتقاء الحيوانى واللذة الحيوانية . غاية تتفق مع غاية وجوده كما تتفق مع طبيعة تكوينه ، التى ألمحنا إليها فى الصفحات السابقة باختصار[1] .

وليس تفصيل المنهج الإلٰهى لعلاقة الجنسين موضوعنا هنا . إنما موضوعنا هو ذلك التخبط الذى عانت منه البشرية فى أطوارها المختلفة ، وهى تشرد عن الله ، وتتخذ لنفسها مناهج تقوم على الجهل والهوى والضعف والشهوة فى أطوارها المتلاحقة ؛ ولا تستقر على وضع معتدل هادئ مطمئن فى طور من الأطوار .

ونجتزئ بالتخبطات التى تداولت المجتمع الأوربى منذ عهد الإمبراطورية الرومانية — التى على أساس حضارتها تقوم الحياة الأوربية المعاصرة — كما فعلنا فى الكلام عن النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته .

* * *

لقد تأرجحت النظرة إلى المرأة بين اعتبارها كائنا منحطا أشبه بالأشياء منه بالأحياء ! إلى اعتبارها شيطانا رجيما يوسوس بالشر والخطيئة ! إلى اعتبارها سيدة المجتمع والحاكمة فى أقداره وأقدار حاكميه ! إلى اعتبارها عاملة عليها أن تكافح وتشقى لتعيش .. ثم تحمل وتضع وتربى !

كما تأرجحت العلاقة بين الجنسين بين اعتبارها علاقة حيوان بحيوان . إلى اعتبارها دنسا ورجسا من عمل الشيطان . إلى اعتبارها مرة أخرى علاقة حيوان بحيوان !

أما أن المرأة شطر النفس الإنسانية ، وأنها صانعة الجنس البشرى ، وأنها حارسة

---

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع كاف فى كتاب « الحجاب » للسيد أبى الأعلى المودودى . وكذلك فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

العش الذى تدرج فيه الطفولة . . وأنها الأمينة على أنفس عناصر هـذا الوجود . . « الإنسان » . . وأن عملها فى إتقان هـذا العنصر لا يعدله عملها فى إتقان أى عنصر آخر أو أى جهاز ... إلى آخر هـذه الاعتبارات الفطرية الإنسانية الكريمة . . فهذا مالم يعتدل به الميزان قط ، فى تلك المناهج الجاهلية .

وأما أن العلاقة بين الجنسين أداة لخدمة النوع البشرى ، بإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعى المتخصص ، لإنتاج صناعة البشر ـ وهى أثمن وأغلى صناعة فى هـذه الأرض ـ واعتبار « الواجب » ـ لا اللذة ـ هو عماد هذه العلاقة ، لتعلق المستقبل البشرى كله بها ، وقيام التمدن البشرى عليها ... أما هذا الاعتبار فلم يعتدل به الميزان كذلك قط فى مناهج الجاهلية القديمة أو الحديثة .

وقد مضت الجاهلية الإغريقية القديمة على ذلك النمط ، ولا مجال للحديث عنهـا هنا خوف الإطالة .

« والذين تسنموا ذروة المجد والرقى فى العالم ـ بعد اليونانيين ـ هم الرومان . وفى هذه الأمة أيضا نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط . التى قد شاهدناها فى اليونان . فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلم الجهل ، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجل رب الأسرة فى مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده . بل بلغ من سلطته فى هذا الشأن ، أن كان يجوز له حتى قتل زوجه فى بعض الأحيان [1]

« ولما تخففت فيهم سورة الوحشية ، وتقدموا خطوات فى سبيل المدنية والحضارة ، تخففت القسوة فى تلك السلطة ، وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئا فشيئا وإن بقى نظام الأسرة القديم ثابتا على حاله .

---

(١) وبيع أولاده كذلك . . .

« ثم أخذت نظرية الرومان فى النساء تتبدل (بعد فترة من شبه الاعتدال والتوازن) برقيهم وتقلبهم فى منازل المدنية والحضارة . وما زال هـذا التبديل يطرأ على أنظمتهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة ، وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الأمر ظهرا لبطن ، وانعكست الحال رأسا على عقب ، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدنى (Civil Contract) فحسب ، ينحصر بقاؤه ومضيـه على رضى المتعاقدين . وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا . ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك ، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطان عليها للأب ولا للزوج . ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشؤون معايشهن فحسب ، بل دخل فى حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومى على مسير الأيام . فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيدا لهن فى ميادين العمل والواقع ! ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئا عاديا يلجأ إليه لأتفه الأسباب . . فهذا « سنيكا » الفيلسوف الرومانى الشهير (٤ ق . م ـ ٥٦ م) يندب كثرة الطلاق ، ويشكو تفاقم خطبه بين بنى جلدته فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئا يندم عليه أو يستحيى منه فى بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته وذيوع أمره ، أن جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن ! .

« وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر ، وتمضى فى ذلك من غير حياء . وقد ذكر « مارشل » (٦٠ ـ ١٤٠ م) عن امرأة تقلبت فى أحضان ثمانيـة أزواج فى خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب ماذكره القديس « جروم » (٣٤٠ ـ ٤٢٠ م) عن امرأة تزوجت فى المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هى أيضا الحادية والعشرين لبعلها !

« ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غـير

عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف فى آخر الأمر ، أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئا عاديا . . فهذا « كاتو » (Cato) الذى أسندت إليه « الحسبة الخلقية » سنة ١٨٤ قبل الميلاد يجهر بجواز اقتراف الفحشاء فى عصر الشباب . وذاك « شيشرون » (Cisro) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ، بإطلاق العنان لهم فى هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليهما ، بل يأتى « ابكتيتس » (Epictetus) الذى يعد من المتصلبين فى باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين (Stoics) فيقول لتلاميذه .. مرشدا ومعلما .. « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج ـ ما استطعتم ـ ولكنه لا ينبغى أن تلوموا أحدا ، أو تؤنبوه ، إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته .. » (١)

ثم كان من ثمرة هذه الاتجاهات ماسبق أن أثبتناه (٢) ، من انحلال عرى المجتمع الرومانى .. ثم دمار هذا المجتمع . وسقوط الدولة الرومانية .

* * *

ومن هذه الإباحية المطلقة والشهوانية العارمة ، واعتبار اللذة غاية التقاء الجنسين التى لا غاية وراءها ...

من هذا الطرف القاصى انتقلت أوربا ـ أو أرادت الكنيسة نقلها ـ إلى الطرف القاصى الآخر . إلى الرهبنة وإلى الفرار من المرأة ، وإلى مهانتها فى الوقت ذاته وازدرائها .

وقد سبق أن تحدثنا عن الرهبنة وسلطان الكنيسة فى المجتمع الأوربى واضطرابه وتخبطه ، حتى أفلتت أوربا منه شاردة إلى تيه الجاهلية الحديثة .

---

(١) عن كتاب (الحجاب) للأستاذ المودودى ص ٢٠ـ٢٣ .
(٢) ص٥٣ ـ ٥٥

ونزيد الأمر هنا إيضاحا فيما يتعلق بالنظرة إلى المرأة خاصة،وإلى العلاقة بين الجنسين في ظل التصور الكنسي . .

« فمن نظريتهم الأولية الأساسية في هذا الشأن ، أن المرأة ينبوع المعاصي ، وأصل السيئة والفجور ، وهي للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلا أنها امرأة ! وينبغي لها أن تستحي من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبدا ، لأنها هي التي قد أتت بما أتت من الرزء والشقاء للأرض وأهلها . .

« ودونك ماقاله « ترتوليان » (Tertulian) أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها ، مبينا نظرية المسيحية [1] في المرأة . .

« إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة . ناقضة لقانون الله . ومشوهة لصورة الله ـ أي الرجل »

« وكذلك يقول « كرائي سوستام » (Chry Sostem) الذي يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية في شأن المرأة :

« هي شر لابد منه ، ووسوسة جبلية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلي مموه !

« أما نظريتهم الثانية في باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها يجب أن تتجنب ـ ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع ـ

---

(١) الأولى أن نعبر دائما « بالنظرية الكنسية » لبعد مابين حقيقة النصرانية ، و « التصورات الكنسية » .

هذا التصور الرهبنى للأخلاق الذى كانت جذوره تكاد تتأصل فى أوربة من قبل ، بتأثير الفلسفة الإشراقية (Neo - Platonism) جاءت المسيحية فزادته شدة ، وبلغت به منتهاه . وذلك أن أصبحت حياة العزوبة مقياسا لسمو الأخلاق وعلو شأنها ؛ كما صارت الحياة العائلية علما على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع . وجعلوا يعدون العزوبة ، وتجنب الزواج من أمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق . وأصبح من المحتوم لمن يريد أن يعيش عيشة نزيهة ألا يتزوج أصلا ، أو لا يعاشر امرأته معاشرة الزوج لزوجته على الأقل! وكذلك قرروا ووضعوا القوانين فى مؤتمراتهم الدينية المتعددة بأن لا يختلى رجال الكنيسة بأزواجهم . وألا يتلاقى الرجل والمرأة منهم إلا بمرأى من الناس ، أو أمام رجلين من رجالهم على الأقل . . وما ألوا جهدا فى أن يثبتوا فى قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية وتنجسها .. وخذ لذلك مثلا أن كان شائعا بينهم ، أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معا ليلة عيد من الأعياد ، لا يجوز لهما أن يعيّدا ويشتركا مع القوم فى رسومهم ومباهجهم ، كأنى بهم يرون أنهما قد اقترفا إثما سلبهما حق المشاركة فى حفل دينى مقدس عندهم . . وقد بلغ من تأثير هذا التصور الرهبنى ، أن تكدر صفو ما بين أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر . وحتى ما بين الأم والولد منها . إذ أمسى كل قرابة وكل سبب ناتج عن عقد الزواج يعد إثما وشيئا نجسا !

« وهاتان النظريتان ما وضعتا من مكانة المرأة وحطتا من شأنها فى حقول الأخلاق والاجتماع فحسب ، بل كان من مفعولها القوى ، ونفوذهما البالغ فى القوانين المعينة ، أن أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق للرجال والنساء بجانب ، وبجانب آخر انحطت منزلة المرأة فى المجتمع فى كل ناحية من نواحى الحياة »[1] .

***

(١) كتاب الحجاب » للأستاذ المودودى ص ٢٥ــ٢٨

ثم انفلتت أوربا من ربقة الكنيسة وتصوراتها الكنسية ، وشردت عن الله وعن الدين كله ، ومضت فى شرودها آبقة من كل ما يربطها بالله وبالدين : صحيحه وزائفه على السواء !

وفى خلال القرن التاسع عشر ظهر دارون وفرويد وكارل ماركس جميعا .

وكانت إيحاءاتهم وتوجيهاتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان بشتى الطرق . مرة بحيوانيته المطلقة على يد دارون . ومرة بوحله الجنسى المطلق على يد فرويد . ومرة بسلبيته وضآلة دوره تجاه المادة والعوامل الاقتصادية على يد كارل ماركس .

وكل هذه الإيحاءات والتوجيهات كما تؤثر فى النظرة إلى الإنسان ذاته ، تؤثر كذلك فى النظرة إلى المرأة وإلى العلاقات بين الجنسين بصفة خاصة . وتحطم كل قوائم الأخلاق . وتطلق الجنسين حيوانين يتلمسان الشهوة واللذة لذاتهما . . حتى الهدف الحيوانى من حفظ النوع بالنسل لم يعد الأناسى فى أوربا وأمريكا ينظرون إليه إلا على أنه قيد يحد من حرية الاختلاط الجنسى ؛ ويحمّل الذكر والأنثى تبعات لا يريدان أن يتحملاها ! فأصبح همهما معا هو التخلص من آثار اللذة بعد الالتقاء الجنسى ، بمنع الحمل ، أو بالإجهاض أو بوأد الوليد . (وسنتحدث عن هذا بشىء من التفصيل فى فصل تال) . .

المهم هنا أن نقرر جموح النظرة إلى المرأة ، بعد انفلات أوربا من نير الكنيسة والتصورات الكنسية ، وشرودها ـ إبان هذا ـ عن الله وعن منهجه فى الحياة ؛ والفصل بين اللذة الجنسية فى علاقات الجنسين وأهدافها الإنسانية ـ ثم أهدافها الحيوانية أيضا !

« قالت لى إحدى الفتيات الأمريكيات فى معهد المعلمين (جريلى كولورادو) فى أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية فى أمريكا :

« إن مسألة العلاقات الجنسية مسألة بيولوجية بحتـة ، وأنتم ــ الشرقيين ــ تعقّدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقى فيهـا . فالحصان والفرس ، والثور والبقرة ، والـكبش والنعجة ، والديك والفرخة .. لا يفـكر أحد منها فى حكاية الأخلاق هذه ، وهو يزاول الاتصال الجنسى . ولذلك تمضى حياتها سهلة بسيطة مريحة !!!

« وكانت إحدى المدرسات فى المعهـد المركزى لتعليم اللغة الإنجليزية للغرباء بمعهد ويلسون للمعلمين بواشنطون ، تلقى على مجموعة من طلبة أمريكا اللاتينية ــ الذين يعدون فى هـذا المركز لتلقى الدراسة باللغة الإنجليزية ــ درسا فى تقاليد المجتمع الأمريكى . وفى نهاية الدرس سألت طالبا من جواتيمالا عن ملاحظاته على المجتمع الأمريكى . . فقال لها : لقد لاحظت أن فتيات صغيرات فى سن الرابعة عشرة وفتيانا صغارا فى سن الخامسة عشرة يزاولون علاقات جنسية كاملة ... وهذا وقت مبكر جدا لمزاولة هـذه العلاقات . . وكان ردها فى حماسة :

« إن حياتنـا على الأرض جـد قصيرة . وليس هناك وقت لنضيعه أكثر من الرابعة عشرة . .. » (1) .

وقد اخترت هـذين النموذجين بالذات من مئات الأمثلة التى شاهدتها هنـاك . لأن صاحبتيهما مدرستان ، وتأثير المدرسة فى نشر مثل هـذه الإيحاءات أوسع من تأثير أى شخص آخر .

ومع هذه الإباحية المطلقة ــ أو بسبب هـذه الإباحية المطلقة ــ لم تعـد العلاقات الجنسية الطبيعية المباحة الرخيصة تشبع الميول الجنسية ، فانتشر الشذوذ الجنسى ، بالميـل

(1) من كتاب « أمريكا التى رأيت » .

إلى الجنس الآخر سواء فى عالم الفتيان، أو فى عالم الفتيات، ويحتوى تقريرا « كنزى » عن « السلوك الجنسى عند الرجال، والسلوك الجنسى عند النساء »، إحصاءات دقيقة وعجيبة عن هذا الشذوذ.

وأذكر – بقدر ما يسمح الحياء وأدب الكتابة – مشاهدة شخصية فى أحد فنادق واشنطن:

« كنت مع زميل مصرى ننزل فى هذا الفندق – بعد وصولنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بيومين اثنين – وقد أنس إلينا عامل المصعد الزنجى – لأننا أقرب إلى لونه، ولأننا لا نحتقر الملونين – فجعل يعرض علينا «خدماته» فى «الترفيه».. ويذكر « عينات» من هذا الترفيه. بما فيها « الشذوذات » المختلفة..

« وفى أثناء العرض جعل يقص علينا أنه كثيرا مايكون فى إحدى الحجرات «زوج» من الفتيان أو الفتيات. ثم يطلبان إليه أن يدخل إليهما زجاجة كوكا كولا.. دون تغيير لوضعهما عند دخوله!!!

« ولما بدا علينا الاشمئزاز والاستغراب، وقلنا له:

« أما يخجلان؟

« أجاب بدوره متعجبا لاشمئزازنا وتعجبنا وسؤالنا عن الخجل:

« لماذا؟ إنهما يرضيان ميولهما الخاصة، ويمتعان أنفسهما... وعلمت فيما بعد – من المشاهدات الكثيرة – أن المجتمع الأمريكى لايستنكر على إنسان أن يرضى لذته بالشكل الذى يروق له. طالما أن ليس هناك إكراه.. ومن ثم فلا جريمة.. حتى فيما لا يزال القانون – على الورق – يعده جريمة.. » (1)

(1) من كتاب: « أمريكا التى رأيت »

والحال فى أوربا — وبخاصة فى بلاد الشمال — لايفترق كثيرا عن الحال فى أمريكا . أما أثر هذا الانحلال فى حياة المجتمع ، وفى تدمير « الإنسان » وتحطيم المجتمع الإنسانى ، وفى تهديد الحضارة الإنسانية الراهنة بالانزواء ، كما انزوت حضارة الرومان القديمة ، فسنتحدث عنه فى فصل تال .

* * *

والكنيسة ؟ ما شأنها مع هذا الانحلال الجارف ؟ ورجال الدين ما شأنهم مع المجتمع الجديد ؟

إن كثيرين ممن لم يعيشوا بعض الوقت فى أوربا أو أمريكا — أو ممن عاشوا هناك ولكنهم لم يتعمقوا وراء الظواهر — كثيرا ماتخدعهم كثرة الكنائس وانتشارها — وبخاصة فى الولايات المتحدة — حيث تقوم فى البلد الصغير الذى لا يتجاوز تعداده عشرة آلاف نسمة أكثر من عشرين كنيسة أحيانا . . وكثيرا ماتخدعهم كثرة مظاهر الاحتفالات الدينية والمراسم والأعياد الدينية . . وكثيرا ماتخدعهم كثرة الأحزاب التى تحمل أسماء « المسيحية » . . ثم كثيرا مايخدعهم ما يكتبه ويذيعه رجال الدين من كتب ومقالات وبحوث وإذاعات فى موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية البحتة أحيانا . .

كثيرا مايخدعهم هذا كله فيحسبون أن للدين شأنا فى أوربا وأمريكا . وأن لرجال الدين أثرا فى الحياة الاجتماعية هناك . . وهذه نظرة سطحية لا تدرك حقيقة ما هو واقع هناك .

إن الكنيسة — بعد أن ذاقت مرارة الإهمال ، ووحشة البعد عن الحياة الاجتماعية ، بعد شرود الناس منها منذ عصر النهضة ، وخاصة منذ عصر التنوير ، ثم عصر الفلسفة الوضعية

المادية ـ قد عادت تلهث وراء المجتمع ، وتتملق بأهداب الناس . لا لتقود المجتمع ولا لتنقل الناس إلى الدين . ولكن لتجرى وراء المجتمع ، ولتتملق شهوات الناس !

عادت لتقيم فى الكنائس ـ بعد القداس ـ حفلات مختلطة للجنسين يشرب فيها النبيذ ، وتدور فيها حلقات الرقص ، وتعرض فيها ألعاب التسلية ، ويتخاصر فيها الفتيان والفتيات المخمورون ، ويلتذون نشوة المخاصرة والعناق حتى الفجر .. كل أولئك لاجتذاب الشبان والشواب إلى الكنيسة !

لقد جربت الكنيسة حين وقفت ـ بالباطل ـ فى وجه ميول الناس الفطرية ، كيف خرجوا عليها وداسوها وأهملوها. فعادت الآن تتجنب أن تقف ـ بالحق ـ فى وجه شهواتهم ونزواتهم ، فيدوسوا عليها ويهملوها !

لقد عادت أوربا إلى حياة الرومان القديمة التى تسمح للآلهة والأرباب أن تنطق بالرجز على ألسنة الكهان ، وأن تكون مواسمها مواسم بهجة ولذة ومتاع . . وذلك دون أن يسمحوا لها بالتدخل فى شؤون حياتهم أو توجيهها وجهة تنافى اللذة والمتاع .

ويخدع بعض الناس هنا فيحسبون أن للكنيسة نفوذا فى حياة الناس . وأن للدين هناك وجودا جديا يستحق الاحترام . ويحسبون أن « مرونة » الكنيسة و « ثقافتها » هناك هى التى ضمنت لها هذا النفوذ ، وضمنت للمسيحية أن تبقى بعد أعاصير عهد النهضة والتنوير والمادية .. وهو مجرد وهم لا يقوم على معرفة ماهو واقع هناك .

ولكن رجلا أوربيا مستنيرا مدركا مثل « ليو بولد فايس » الذى أسلم واهتدى وسمى نفسه « محمد أسد » لا يخدعه ما يخدع بعض الناس هنا . . لأنه عاش هناك. فيقرر فى كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » ما قررناه ، وما تضمنته مشاهداتنا الكثيرة فى أمريكا عن هذا الأمر بالذات . .

يقول :

« لقد سيطر على الغرب الحديث فى أوجه نشاطه وجهوده اعتبارات من الانتفاع العملى (المادى) ومن التوسع الفعال فقط . وقد كان هدفه الذاتى إنما هو المعالجة والاكتشاف لكوامن الحياة ، من غير أن ينسب إلى تلك الحياة حقيقة أدبية فى ذاتها . أما قضية « معنى الحياة » والغاية منها ، فقد فقدت منذ زمن بعيد فى نظر الأوربى الحديث جميع أهميتها العملية . . » (ص ٣٠)

« إن الاتجاه الدينى مبنى دائما على الاعتقاد بأن هناك قانونا أدبيا مطلقا شاملا ، وأننا ـ نحن البشر ـ مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته ، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو قومية . إن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى . ولكنه « الرفاهية » . وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها عن طريق الرغبة فى القوة . . وكلا هذين موروث من المدنية الرومانية القديمة . . » (ص ٣٣)

« كانت الفكرة التى تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومان فى عنفهم سوءاً ولا فى ظلمهم انحطاطا . وإن « العدل الرومانى » الشهير كان عدلا للرومانيين وحدهم . ومن البين أن اتجاها كهذا ، كان ممكنا فقط على أساس إدراك مادى خالص للحياة وللحضارة . إدراك مادى هذبه على التأكيد ذوق فكرى . ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية . إن الرومانيين ـ فى الحقيقة ـ لم يعرفوا الدين . وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . . لقد كانت أشباحا سكت عن وجودها حفظا للعرف الاجتماعى . ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية .

بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها ـ إذا سئلت مثل ذلك ـ ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية .

« تلك كانت التربة التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . . ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها . ثم إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت فى ذلك الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية فى أكثر من ناحية واحدة . . ولكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق ، يرجع إلى المدنية الرومانية . . وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعيا بحتا ، ولا دينيا ـ لا على الافتراض بل على الحقيقة ـ فكذلك هو فى الغرب الحديث . . ومن غير أن يكون لدى الأوربى برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة إلى مثل هذا البرهان ، ترى التفكير الأوربي الحديث ـ بينما هو متسامح فى الدين ، وأحيانا يؤكد أنه عرف اجتماعى ـ ترك على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية .

« إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة ، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى .. فقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكرى فى الإنسان ـ أى من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة ـ وهكذا يميل الأوربى الحديث ، إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . . وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك ، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية» . (ص ٣٦ـ٣٧)

ويقرر الأستاذ أبو الحسن الندوى هـذه الحقيقة باختصار فى كتابه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » فى قوله :ـ

« ديانة أوربا اليوم ، المادية ، لا النصرانية . فما لا شك فيه أن دين أوربا اليوم الذى يملك عليها القلب والمشاعر ، ويحكم على الروح هو « المادية » لا « النصرانية » كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربيـة عن كثب ، لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضا . ولم ينخدع بالمظاهر الدينية ، التى تزيد أبهة الدولة ، والتى يجد فيها الشعب ترويحا للنفس وتنوعا .. ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس ، وحضورهم فى تقاليدها » ... (ص ١٥٤)

ولا بأس ـ بعد رسم هذه الصورة بقلم الكاتبين الواعيين ـ أن أضيف إليها فقرة مما كتبته عن مشاهداتى الخاصة فى كتاب « أمريكا التى رأيت »[1] عن موضوع الكنيسة والمجتمع بالذات ، فى مسألة المرأة والعلاقات بين الجنسين . . فقد يزيد فى جلاء الوهم الذى يراود الزائرين العابرين ، أو المخدوعين فى المظاهر والعناوين ..

« ليس أكثر من الأمريكان تشييدا للكنائس ، حتى لقد أحصيت فى بلدة واحدة ، لا يزيد سكانها على عشرة آلاف ، أكثر من عشرين كنيسة ، وليس أكثر منهم ذهابا إلى الكنائس فى ليلات الأحد وأيامه ، وفى الأعياد العامة وأعيـاد القديسين المحليين . وهم أكثر من « الأولياء » عند عوام المسلمين !

« وبعد ذلك كلـه ليس هناك من هو أبعد من الأمريكى عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته . وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكى وشعوره وسلوكه .

« وإذا كانت الكنيسة مكانا للعبادة فى العـالم النصرانى ـ على تفاوت ـ فإنها فى أمريكا مكان لكل شىء إلا للعبادة . وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان

(١) تحت الطبع .

آخر معهد للهو والتسلية ، أو ما يسمونه بلغتهم « Fun » Good Time ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليداً اجتماعيا ضروريا ، ومكانا للقاء والأنس ، ولتمضية «وقت طيب » وليس هذا شعور الجمهور وحده ، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها .

« ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين ـ شبانا وشواب ـ ويجتهد راعى كل كنيسة أن يلحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن . وبخاصة أن هناك تنافسا كبيرا بين الكنائس المختلفة المذاهب والنحل . ولهذا تتسابق جميعا فى الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة ، وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران، للفت الأنظار ، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة ، لجلب الجماهير ، بنفس الطريقة التى تتبعها المتاجر ، ودور العرض السينمائى والتمثيل . وليس هناك من بأس فى استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن فى الغناء والرقص والترويح .. تماما كما تقف فتيات فى ثياب شديدة اللمعان والإثارة ـ أو فى « مايوه » ـ فى مداخل وطرقات دور السينما لجذب الأنظار ..

« وهذه ـ مثلا ـ محتويات إعلان عن حفلة كنسية ، كانت ملصقة فى قاعة اجتماع الطلبة فى إحدى الكليات ، لجذب طلبة الكلية وطالباتها إلى كنيسة معينة فى المدينة الجامعية الصغيرة :

« يوم الأحد ـ أول أكتوبر سنة ١٩٥٠ ـ فى الساعة السادسة مساء ..

« عشاء خفيف . ألعاب سحرية . ألغاز . مسابقات . تسلية . رقص » .

« وليس فى هذا أية غرابة . لأن راعى الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف فى شىء عن عمل مدير المسرح ، أو مدير المتجر .. النجاح أولا وقبل كل شىء .. ولا تهم الوسيلة .. وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة : المال ، والجاه ، فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته

عظم دخله ، وزاد كذلك احترامه ونفوذه فى بلده . لأن الأمريكى بطبيعته يؤخذ بالضخامة فى الحجم والعدد . وهى مقياسه الأول فى الشعور والتقدير ..

« كنت ليلة فى إحدى الكنائس ببلدة (جريلى) بولاية (كولورادو) فقد كنت عضوا فى ناديها ، كما كنت عضوا فى عدة نوادٍ كنسية فى كل جهة عشت فيها ما بين وشنطن فى الشرق وكاليفورنيا فى الغرب . إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحى المجتمع ، تستحق الدراسة عن كثب ، ومن « الباطن » لا من « الظاهر » وكنت معنيًّا بدراسة المجتمع الأمريكى ..

« وبعد أن انتهت « الخدمة الدينية » فى الكنيسة ، واشترك فى التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء ، وأدى الآخرون الصلاة . . دلفنا من باب جانبى إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة « الصلاة » . . يصل بينهما باب . . وصعد « الأب » إلى مكتبه ، وأخذ كل فتى بيد فتاة ، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتى ، كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن » ..

« وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء ، وقليل من المصابيح البيضاء » .

« وحمى الرقص على أنغام « الجرامفون » وسالت الساحة بالأقدام والسيقان ، والتفت الأذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور .. وكان الجو كله غراما .. حين هبط الأب من مكتبه ، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن فى المكان ، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا فى الحلبة ، على أن ينهضوا فيشاركوا .. وكأنما لحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو « الرومانسى » الحالم ، فراح فى رشاقة الأمريكانى وخفته ، يطفئها واحدا واحدا ، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص ، أو يصدم « زوجا » من

الراقصين فى الساحة . . وبدا المكان بالفعل أكثر « رومانسية » . ثم تقدم إلى « الجرامفون » ليختار أسطوانة للرقص ، تناسب ذلك الجو ، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه .

« واختار ..

« اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها « But, baby it is cold outside »
(ولكن الجو ـ ياصغيرتى ـ بارد فى الخارج) . .

« وهى تتضمن حوارا بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما . وقد احتجزها الفتى فى داره ، وهى تدعوه أن يدعها تمضى لتعود إلى دارها ، فقد تأخر الايل ، وأمها تنتظرها ، وكلما تذرعت بحجة أجابها بتلك « اللازمة » (ولكن الجو ياصغيرتى بارد فى الخارج ...)

« وانتظر الأب ، حتى رأى خطوات « بناته و بنيه » تنساب على موسيقى تلك الأغنية المثيرة . و بدا راضيا مغتبطا . وغادر ساحة الرقص إلى داره، تاركا لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة .. البريئة .. على أن يسلم مفتاح الكنيسة فى داره آخر « زوج » ينصرف من الكنيسة . فالانصراف يكون تباعا حسب مزاج كل زوج !!!

« (وأب) آخر يتحدث إلى صاحب لنا عراقى من الطلبة ، توثقت بينه و بينه عرى الصداقة ، فيسأله عن « مارى » ـ زميلته بالكلية ـ لم لا تحضر إلى الكنيسة الآن ؟ و يبدى أنه لا يعنيه أن تغيب فتيات الكنيسة جميعا وتحضر «مارى» . وحين يسأله الشاب عن سر هذه اللهفة ، يجيب « الأب » . . إنها جذابة . وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها !

« و يحدثنى شاب من شياطين الشبان العرب العراقيين الذين كانوا يدرسون فى أمريكا .. وكنا نطلق عليه اسم « أبو العتاهية » ـ وما أدرى إن كان ذلك يغضب الشاعر

القديم أو يرضيه ! ـ أن « صديقته » كانت تنتزع نفسها من بين أحضانه أحيانا ، لأنها ذاهبة للترتيل فى الكنيسة .. وكانت إذا تأخرت لم تنج من إشارات «الأب» وتلميحاته، إلى جريرة « أبى العتاهية » فى احتجازها عن حضور الصلاة! ..هذا إذا جاءت من غيره .. فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها ، فلا لوم ولا تثريب !

« ويقول لك هؤلاء « الآباء » : إننا لا نستطيع أن نجتذب هذا الشباب إلا بهذه الوسائل . ولكن أحداً منهم لا يسأل نفسه : وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة . . وهم يخوضون إليها مثل هذا الوحل ، ويقضون ساعاتهم فيه ؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف فى ذاته ؟ أم آثاره التهذيبية فى الشعور والسلوك ؟ من وجهة نظر « الآباء » التى أوضحتها فيما سلف ـ مجرد الذهاب إلى الكنيسة هو الهدف . وهو وضع لمن يعيش فى أمريكا مفهوم !

« ولكنى أعود إلى مصر ، فأجد من يتحدث أو يكتب عن الكنيسة فى أمريكا . وعن سماحتها فى مقابلة الخطأ والانحراف . وعن نشاطها فى تطهير القلوب والأرواح . وعن استبقاء سلطان الدين بهذه الأساليب المتطورة ، التى لا تتشدد فيهرب منها الناس . « ولله فى خلقه شؤون »[(١)] .

* * *

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض ـ المجمل على طوله ـ مدى التخبط والاضطراب فى النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين ، فى تاريخ أوربا . ومدى التأرجح بين الطرفين المتباعدين . هذا التأرجح الذى لم يعتدل به الميزان قط ، لوضع كل شطر من شطرى النفس

---

(١) من كتاب « أمريكا التى رأيت »

الواحدة فى مكانه الحقيقى ؛ ولإدراك دور المرأة الحقيقى ، ومكانها الطبيعى . والذى شقى به الجنسان ، وشقيت به البشرية ــ وما تزال تشقى ــ حتى يأذن الله ، فتتسلم زمام الحضارة البشرية يد أمينة ، موصولة بالله ومنهجه للحياة ..

النظم الاجتماعية والاقتصادية

كما وقع التخبط ، والتطرف ، والهزات العنيفة ، والتأرجح بين الطرفين الجامحين دائما، وعدم اعتدال الميزان فى الوسط العادل المتناسق . . كما وقع هذا كله فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفى النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين . . كذلك وقع فى النظم الاقتصادية والاجتماعية سواء بسواء .

وكان هذا طبيعيا ومنتظرا من نظم تقوم على تلك النظرة الخاطئة إلى الإنسان ، وعلى الجهل المطبق بحقيقة الإنسان . فما لم تصح النظرة إلى الإنسان ذاته ، وحقيقة فطرته واستعداداته ، وغاية وجوده وحدود سلطانه . . . الخ ما لم تصح النظرة إلى هذا كله ، فلا مفر من التخبط والأرجحة فى كل ارتباطاته الأخرى . وبخاصة ارتباطاته الاقتصادية والاجتماعية .. فهذه فرع عن تلك وأثر من آثارها .

وهذا الذى نقرره فى الفقرة السابقة هو مفرق الطرق بين التفسير الإنسانى للتاريخ ــ وهو الذى يتفق مع التصور الإسلامى ــ والتفسير المادى والاقتصادى للتاريخ . وهو الذى تقوم عليه الماركسية .

ولا عبرة بما يلح فيه الماركسيون من أن أدوات الإنتاج هى التى تنشىء نوع الارتباطات فى المجتمع ، وأن هذه الارتباطات ــ وحدها ــ هى التى تنشىء النظرة إلى

« الإنسان » وإلى « الأخلاق » وإلى « الدّين » وإلى « المبادىء والقيم ، والآداب والعادات والتقاليد » وإلى « الحكم » وإلى « النظم » وإلى « الأوضاع » وإلى سائر الارتباطات فى حياة الإنسان .

لا عبرة بهذا الإلحاح فى إفراد العوامل الاقتصادية ـ وحدها ـ بتسيير كل شىء فى حياة الكائن الإنسانى ، والمجتمع الإنسانى ، واعتبارها هى ـ وحدها ـ إلها قادرا على التغيير والتبديل ، قاهرا لابد للإنسان إزاءه من الخضوع « للحتمية » والتسليم .

لا عبرة بهذا الإلحاح ، فإن هو إلا لوثة من لوثات « الماركسية » الكثيرة . وقد تهلهلت « الماركسية » على كل حال ـ « كنظرية » ـ تحت مطارق الواقع ، ودوافع الفطرة ، وحقائق الدوافع البشرية الأصيلة ، واحتاجت إلى التعديلات المتوالية ، على يد لينين وستالين وخروشوف . وهم يسمونها « تعديلات » وهى فى الواقع « عدولات » عن أسس النظرية مع الاحتفاظ بالشارة والإطار . وهم يعللون هذه العدولات ، بأن الماركسية مذهب متطور . . على حين أن ليس هناك مذهب ، ولا نظرية ، ولا دين ، يحتشد بالحتميات احتشاد الماركسية الأولى ، كما وضعها ماركس وإنجلز . فدعوى « التطور » بعد الماركسية ، دعوى جديدة جدا ، لمواجهة مطارق الفطرة ، ومطارق الواقع ، وجهاد «الذات الإنسانية» فى روسيا والصين، وسائر البلاد التى أخضعتها الشيوعية، لإثبات وجودها على الرغم من الثقل الساحق للنظام البوليسى الرعيب .

ونحن لا نناقش « الماركسية » هنا . ولكننا نستعرض فقط بعض مظاهر التخبط والأرجحة فى النظم الاقتصادية والاجتماعية التى قامت مستندة إلى الجهالة المطلقة بحقيقة الإنسان ونظرته وميوله واستعداداته وحاجاته الحقيقية . بسبب أنها قامت بمعزل عن منهج

الله العليم بحقيقة هذا الإنسان ، و بما يصلح له وما يصلحه من النظم والأوضاع .

لقد سارت الأوضاع تتأرجح بين التطرف هنا والتطرف هناك على نفس الطريقة التي سارت بها في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، والنظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين . بل أشد تأرجحا وأكثر ضحايا ، وأشد بلاء . منذ كان الاقتصاد وتوزيع السلطات في المجتمع مجالا لصراع أشد ، يبلغ حد الوحشية الرعيبة في كثير من الأحيان . ومنذ كانت معالجة الخطأ الجامح تأتي دائما بخطأ آخر جامح في الجانب الآخر . ولا يعتدل بها الميزان قط في يد الإنسان ، الجاهل بنفسه ومقدراته وحاجاته الحقيقية ، الخاضع لشهواته وضعفه وهواه ، الشارد في الوقت ذاته عن الله ومنهجه للحياة .

والماركسية والتفسيرات المادية عموما تخرج الإنسان من حسابها وهي تسجل هذه التقلبات والأطوار . والماركسية بصفة خاصة تقيم الاقتصاد ـ وحده ـ إلها متفردا متصرفا في أقدار « الإنسان » بعيدا عن إرادة الإنسان وفطرته واستعداداته وطاقاته . فهي دائما خاضعة لحتمية العوامل الاقتصادية ، أو ناشئة من هذه العوامل الاقتصادية .

وهي تعزو هذه التقلبات والأطوار إلى تغير أدوات الإنتاج ، فإن تغير هذه الأدوات « يحتم » تغير الارتباطات في المجتمع ، ومن ثم يوجد « التناقض » بين الوضع القائم ، وما يتطلبه تغير أدوات الإنتاج من تغير في الروابط الاجتماعية والاقتصادية ، فتقع الثورة أو الانقلاب لإنشاء وضع جديد ملائم لتغير أدوات الإنتاج . والإنسان لا دور له في هذا كله . . ولو كان هو الذي يغير أدوات الإنتاج بيده أو بفكره . فهذا ما يسكت عنه ماركس . وكأن أدوات الإنتاج هذه إله آخر . ولكنه إله يغير نفسه ! فتنشأ « حتمية » التغير في الأوضاع الاجتماعية تبعا للتغير في ذات الإله !

ما علينا . . فنحن كما قلنا لا نناقش الماركسية هنا ، ولكن نستعرض فقط الأرجحة فى حياة الناس الشاردين من الله . غير أننا سنناقش فقط هذه « الحتمية » والأسباب الواهنة التى قامت عليها فى الفلسفة الماركسية .

إن الماركسيين يعزون التقلبات والأطوار كلها إلى تغير أدوات الإنتاج . ومن ثم تغير الأوضاع الاجتماعية . وهم يعدون هذه الأطوار إذن « حتمية » فى خط سير التاريخ .. فعلام يستندون ؟

إنهم يستندون – كما يقول كارل ماركس – إلى الواقع التاريخى .

وعلى الرغم مما فى ادعاء فرد واحد – أو حتى مجموعة من الأفراد – أنهم يحيطون علما بكل وقائع التاريخ ، وبكل العوامل المستترة والظاهرة فى هذا التاريخ ، وبكل دوافع « الإنسان » فى جميع الأجيال والأزمان ، لا فى الماضى فقط ، ولكن فى الحاضر وفى المستقبل كذلك – بينما العلماء المتخصصون فى القرن العشرين يعترفون بجهالتهم المطلقة بالإنسان ، وبأنهم يقفون منه على عتبات المجهول . . على الرغم مما فى هذا الادعاء العريض من « خرافة » لا يجوز أن يقوم عليها « رأى أو فرض » ، فضلا على أن يقوم عليها « مذهب » ! فإن الماركسية قد نبذت كل رأى آخر يمكن أن يخالف هذا المذهب . وقامت بالمذابح الرهيبة للملايين من البشر لمجرد أن يكون لهم رأى آخر فى تاريخ الإنسان . أى نفس ما فعلت « الكنيسة » شيئاً منه ، وهى تحرق العلماء الذين يرون رأيا آخر فى « خرافاتها المقدسة » . . وهى لا ترتفع كثيرا على « الخرافات الماركسية المقدسة » .. « العلمية ! » . . فى هذا الزمان !

ولكن الماركسية – « المذهب العلمى » – تريح نفسها من متاعب « الدراسة العلمية »

لكل عوامل التاريخ ، ولكل دوافع الإنسان . . فهى تختار عنصرا واحدا من عناصر الحياة ـ عنصر الاقتصاد ـ وتعتبره ـ كما قلنا ـ إلٰها ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا حيلة للإنسان فى « حتمية » مايراه !

غير أنها لا تدرس آثار قدرة هذا الإلٰه فى تاريخ العالم .. إنما تدرسه فى تاريخ أوربا . ثم تعمم حتمية إرادته على الأرض كلها .. وهذه كذلك إحدى تخريفات « المذهب العلمى » القائم على الاستقصاء !

ومن ثم يعتبر الماركسيون أن تاريخ أوربا هو تاريخ العالم ، وأن إلٰه الاقتصاد الذى حكم تاريخ أوربا هو الذى يحكم تاريخ العالم . ويقررون حتمية تلك الأطوار فى تاريخ العالم استنادا إلى ماوقع فى تاريخ أوربا . . من وجهة نظرهم ، التى تنحّى كل العوامل فى تاريخ البشر ، لتقرر وحدانية إلٰه الاقتصاد بالعمل !

وهم ـ طبعا ـ لا يمكن أن يخطر على بالهم أنه على فرض أن هذا التاريخ صحيح ، وعلى فرض أنه تاريخ العالم لا تاريخ أوربا . . فإن هذه الأطوار تأرجحت هكذا بين طرفى الغلو دائما ، ولم يعتدل بها الميزان أبدا ، ووجدت فيها « المتناقضات » المتصارعة ، نظرا إلى أنها قامت على مناهج من صنع الإنسان ، الجاهل بنفسه ، وبحاجاته الحقيقية ، المثقل فى أحكامه واختياراته وتصرفاته بآثار هذا الجهل ، وبالضعف البشرى ، والهوى المتقلب والشهوات العمياء . . . وأنه فى الوقت ذاته لم يستعن بمنهج الله ليضبط هذه الشهوات ، وهذا الهوى ، وهذا الضعف ، وهذا الجهل ، بضابط ثابت ، يخفف على الأقل من هذه الاندفاعات البشرية على غير هدى فى كل اتجاه !

لا يمكن ـ طبعا ـ أن يخطر هذا على بالهم . وهم يقيمون فلسفتهم الاقتصادية ابتداء

على أساس المذهب المادى الذى ينكر أن يكون لهذا الكون إله . وهم يسخرون أشد السخرية ممن يعتقدون بوجود الله ...

ونحن الذين عصمنا الله من الشرود من كنف الله ـ لأنه لم تكن لنا كنيسة تطاردنا باسمه ، فنشرد منها ومن إلهها ودينها، وتمضى كالذين يقول الله عنهم : « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » !

ونحن الذين عصمنا الله من أن نكل إلى العلم الإنسانى ـ أو بتعبير العلماء إلى الجهل الإنسانى ! ـ مهمة وضع المناهج الأساسية للحياة الإنسانية ، بل أمدنا بقواعد المنهج المنير ، القائم على العلم المطلق بفطرة الإنسان واستعداداته وطاقاته وحاجاته الحقيقية .

نحن ـ وهذا فضل الله علينا ـ جديرون أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى . وأن نأخذ الأمور بالرفق والهدوء . والنظر « العلمى » الصحيح ، الذى يتقصى كل جوانب المسألة ، ولا ينهش منها نهشة ويجرى شاردا من الكنيسة ، وإله الكنيسة ، ودين الكنيسة ، وتصورات الكنيسة !

وعندئذ ندرك مظاهر التخبط والتأرجح ، والأسباب الحقيقية الكامنة وراءها . وتكون لنا نظرتنا المستقلة ، ونظرياتنا المستقلة ، ومناهجنا المستقلة القائمة على دراستنا المستقلة ، المستمدة من منهج الله وهداه .. ومن ثم نرى أن هناك اختلافا جذريا أصيلا بين منهجنا ، وكل المناهج السائدة ، وبين مذهبنا وكل المذاهب المعروفة ، وبين طبيعة نظرتنا لواقع الحياة البشرية وللتاريخ البشرى وكل النظرات القائمة ؛ وبين تفسيرنا للحياة والتاريخ وكل تفسير آخر . وبين كل عنوان اتخذته الأنظمة الاجتماعية البشرية وعنوان نظامنا « الإسلامى » .

وليس هذا البحث المجمل مجال هذه الدراسة ، فضلا على أنها فى حاجة إلى كفايات

منوعة ، تتجمع فى تنظيم واحد ، وتستوفى الزمن اللازم لهذه الدراسة الضخمة ، فى ظروف وأوضاع جادة فى الأخذ بمنهج الله . وأمام عزمة حقيقية لتنفيذ هذا المنهج . ومن ثم تتجه إلى هـذه الدراسة لتطبيق نتائجها فى عالم الواقع ودنيا التعامل لا لمجرد البحث والدراسة والثقافة ! فالمنهج الإسلامى فى التفكير والنظر منهج واقعى جاد ، لا يسمح لأصحابه أن يبذلوا جهودهم لمجرد البحث والدراسة والثقافة ؛ إنما هم يبذلونها لتطبق ، ولتصبح واقعا من الواقع ، وذلك حين يكون هناك اتجاه جاد لتحكيم النظام الإسلامى كله فى الحياة !

إنما المجال فى هـذا البحث المجمل مقصور على استعراض بعض التخبطات فى الحياة الأوربية ـ فى هذا الجانب ـ هذه الحياة التى طغت ـ مع الأسف ـ على رقعة الأرض كلها فى هـذا الزمان . والتى أصبحت مفهوماتها وتفسيراتها وشاراتها وعنواناتها ومصطلحاتها هى التى تغمر رقعة الأرض كلها ، أو تندس فى ثنـايا التفكير والتعبير والتطبيق فى كل مكان !

* * *

من الرق الرومانى الشهير . إلى الإقطاع . إلى الرأسمالية . إلى الماركسية والنـازية . . غلو فى طرف يعالجه غلو آخر فى الطرف الآخر . . وظلم لطبقة يعالجه ظلم آخر لطبقة أخرى . . واعتداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية فى نظام ، يعالجه اعتـداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية فى النظام الآخر .. ولا يعتدل الميزان مرة واحدة بالعدل بين الطبقات كلها ، والتناسق بين طاقات الإنسان كلها ، وإتاحة المجال « للفردية » التى يتميز بها كل فرد ، مع رعاية حق « الجماعة » الممثلة لخصائص الأفراد جميعا ، فى تناسق واعتدال .. الأمر الذى لا يتوافر إلا فى منهج الله ..

ونستطيع أن نتجاوز ـ هنا ـ عن عهد الرق الرومانى ـ على سبيل الاختصار فى هذا

البحث المجمل الذى يشير ولا يفصل ـ ونبدأ فقط من عهد الإقطاع .. فى استعراض مجمل عام ، يناسب طبيعة هـذا البحث المجمل العام ...

☆☆☆

ويجب ـ ابتداء ـ أن نميز بين الخصائص الأساسية المميزة للإقطاع بمعناه الاصطلاحى التاريخى الذى عرفته أوربا ، وتلك المظاهر الثانوية السطحية التى ربما تكون قد وجدت فى أنحاء أخرى من الأرض فى عصور مختلفة . . فهذا التمييز ضرورة من الناحية العلمية ، ومن الناحية الشعورية كذلك .

إن نظام الإقطاع فى أوربا لم يكن مجرد وجود ملكيات كبيرة ، ولكنه كان مصحوبا بخصائص هذا النظام الأساسية :

وأخص خصائص هذا النظام كانت :

١ ـ تبعية الفلاحين للأرض ، حيث كان وضعهم فيها كوضع آلات الزراعة وحيواناتها ، وانتقالهم ـ مع الأرض ـ إلى المالك الجديد كما تنتقل الآلات والحيوانات ـ ولو كانوا لا يباعون كما هو الحال فى نظام الرق ـ ولكن تبعيتهم للأرض تحرمهم حق الانتقال منها إلى أرض أخرى ، كما تحرمهم بطبيعة الحال حق اختيار حرفة أخرى فردية مستقلة .

٢ ـ كما كانت إرادة السيد « الشريف » هى القانون فى إقطاعيته . فهو الذى يشرع للأقنان (رقيق الأرض) وهو الذى يحدد علاقاتهم به وبالأرض ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ..

وهذا هو الإقطاع كما عرفته أوربا وكما ثارت عليه أيضا !

وهاتان الخاصتان تعتبران العلامتين المميزتين لهذا العهد البغيض :

وقد ظلت أوربا ترزح تحت وطأة هذا النظام الفظيع ، الذى تهدر فيه قيمة الإنسان – ابتداء – بجعله تابعا للأرض كالماشية وأدوات الزراعة ، ينتقل معها إلى المالك الجديد . ولا يملك أن يحس بكينونته « الإنسانية » مستقلة عن الأرض . ولا يملك أن يغادرها – ولو إلى إقطاعية أخرى . و إلا اعتبر آبقا – بحكم القانون – ووجب القبض عليه ورده إلى الأرض التى يتبعها (و إن كان هذا القانون لم يعد ينفذ فى أواخر عهد الإقطاع فى الحالات التى كان المالك الذى أوى الهاربون إلى إقطاعيته يرى أن من مصلحته عدم ردهم إلى سيدهم وأرضهم !) .. وتهدر فيه كرامة « الإنسان » مرة أخرى بجعله أسير إرادة الشريف ، واعتبار هـذه الإرادة هى القانون . . وليس أحط من وضع يـكون فيه الانسان خاضعا لشريعة هى مجرد إرادة إنسان مثله .. ولو كان هو السيد الشريف ! ! !

ظلت أوربا ترزح تحت وطأة هذا النظام الفظيع ، حتى انساحت جموع الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، واحتـكوا بالمجتمع الإسلامى ، وعرفوا عن كثب أوضاع حيـاة الناس فيه ، ورأوا نظاما آخر غير ذلك النظام الفظيع .

رأوا شريعة يتحا كم إليهـا النـاس جميعا ، حا كمهم ومحكومهم ، غنيهم وفقيرهم ، مالـكهم ومعدمهم ، صاحب الأرض والعامل فيها على السواء . شريعة ليست هى إرادة السيد صاحب الأرض ، وليست هى إرادة الأمير كذلك . ولا السلطان . إنما هى شريعة تجيئهم جميعا من عنـد الله . ويتولى الحـكم بها قضاة . طالما وقفوا بها فى وجه الأمراء والسلاطين ، عند ما كان أحدهم يهم بظلم الرعية أفرادا أو جماعات . وقد ظهر فى هـذه الفترة بالذات أئمة أقوياء وقفوا مرات فى وجه سلاطين المماليك ، وكان لوقفاتهم صداها الذى تتناقله الجماهير فى الوطن الإسلامى ، وتعرفها جموع الصليبيين الذين يحتـكون بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان .

وعلى الرغم من كل ما كان قد وقع فى المجتمع الإسلامى فى هذا الوقت من انحرافات ، وعدم مراعاة لشريعة الله فى بعض جزئيات الحياة . . فإن المسافة بين هذا المجتمع والمجتمع الإقطاعى الذى جاء منه الصليبيون كانت بعيدة بعيدة .

رأوا الناس أحرارا ، لا فى الانتقال من مزرعة إلى مزرعة ، ولا فى الانتقال من مدينة إلى مدينة ، بل فى الانتقال خلال الأقطار الإسلامية فى أطراف الأرض .. إذ كانت كلها وطنا إسلاميا واحدا متصلا لا تقوم فيه الحواجز دون أفراد المسلمين ـ حتى ولو تعدد الأمراء والسلاطين .

ورأوا الناس أحرارا فى اختيار المهن حسب مزاجهم ورغبتهم واختيارهم . لا يحد من حريتهم فى هذا قيد ما .

ورأوا أصحاب الحرف يتجمعون فيما يشبه النقابات ، حيث يكون لكل حرفة (ريس) وتقوم العلاقة بين أصحاب الحرفة الواحدة على التعاون والمودة .

وكل هذه الظواهر لم يكن لها بعد وجود فى المجتمع الأوربى الإقطاعى الذى جاء منه الصليبيون .

نعم . إنه ربما وجدت بعض الملكيات الكبيرة فى المجتمع الإسلامى حينذاك . ولكنها لم تكن تنشئ نظام إقطاع كالذى عرفته أوربا . لأنه لا « شريف » ولا « أقنان » ولا تبعية للأرض تلصق « الأقنان » بها ، ولا إرادة للسيد هى القانون ! بل القانون شريعة من عند الله .. وهذا لم يكن ينشئ نظام إقطاع بالمعنى الاصطلاحى الفنى التاريخى لنظام الإقطاع . الذى عرفه أولئك الصليبيون .

وفى خلال القرنين اللذين اشتعلت فيهما نار الحروب الصليبية ، طردا وعكسا ، كانت الانطباعات والتأثيرات بالمجتمع وأوضاعه تفعل فعلها فى نفوس عشرات الألوف من

الصليبيين الذين شاهدوه ، ومئات الألوف بل الملايين ممن وراءهم ، ممن سمعوا قصص العائدين من هناك .

وكانت تتخمر فى المجتمع الأوربى هذه الانطباعات والتأثرات ، إلى جانب العوامل المحلية الأخرى (التى يتعمد الأوربيون عامة والماركسيون خاصة أن يجعلوها وحدها هى العوامل المؤثرة) من نشأة الحرف ، والمدن التجارية ، وطبقة التجار ، والامتيازات التى حصلوا عليها فى مقابل تمويل الأمراء فى حروبهم الصليبية ، وفى حروبهم مع بعضهم البعض ... إلى آخر العوامل التى أدت إلى الثورة على نظام الإقطاع .

لقد كان نظاما جائرا فظيعا . امتهنت فيه كرامة « الإنسان » إلى أقصى حد . ولم يكن يفرقه عن نظام الرق إلا أن رقيق الأرض فيه لا يباع ، ولا يقدم للسباع !

وكان أحد التيارات الإسلامية فى الأرض ، هو الذى نخر فى أساسه . ثم جاءت العوامل الأخرى المحلية فضغطت عليه ، فانهار .

وكرد فعل لإهدار الوجود الفردى والحرية الفردية ، بل لإهدار الوجود الإنسانى ، قام النظام الرأسمالى على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد إلى غير حد ، وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردى هو الصالح الأعلى . .

وبرزت هذه الاتجاهات فى المجال الاقتصادى إلى أقصى حد ، إذ ترك كل شىء فى هذا المجال لنشاط الأفراد ورغباتهم وصوالحهم ، دون أى اعتبار للمجتمع ، أو للأخلاق ، أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن تحد من الحرية الفردية ، أو من تحقيق الصالح الفردى ، كما يتراءى للفرد أن يحققه .

وبينما قام هذا الاتجاه فى مجال الاجتماع والاقتصاد — فى أول الأمر — بدور المخلّص

للجماهير من قبضة الإقطاع الفظيعة ؛ وأتاح للمواهب الفردية وللنشاط الفردى أن تصل إلى قمة الإبداع والحركة والطلاقة ؛ وأن تتجه الجهود ـ فى سبيل تحقيق الصالح الخاص ـ إلى استثمار كنوز الأرض ، وقوى الطبيعة للصالح البشرى العام ... إلى آخر الخدمات الكثيرة التى أداها بروز النظام الرأسمالى ، كدور تقدمى بالقياس إلى النظام الإقطاعى فى أوربا . .

بينما قام هذا الاتجاه بهذه الخدمات ، وأدى للبشر هذه الخيرات ، كان عامل التطرف فيه ، وكونه رد فعل لخطأ آخر ، وعلاجا لداء بداء جديد ـ أدى هذا كله إلى انطلاق السعار « الرأسمالى » الذى يبدأ من النظام الربوى اللعين الذى صاحب نشأة النظام الرأسمالى ، وتغلغل فيه بحيث أصبح هو أساس الاقتصاد الحديث ؛ وينتهى إلى اعتبار جميع القيم الأخلاقيـة والإنسانية والاجتماعية هراء لا معنى له إذا شاءت أن تتدخل فى قواعد الاقتصاد ، وأن توقف هـذا السعار المجنون ، الذى لا ينتهى إلى تضخم رؤوس الأموال والمصالح الرأسمالية على حساب الطبقات المنتجة فحسب . . ولـكن يضيف إلى هذا المظهر البشع ما هو أبشع .. ذلك أن يصبح العمال والصناع والتجـار ، وأصحـاب المصانع أنفسهم ، مجرد أجراء للصيارفة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا إليها أموال حمـلة الأسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم، إذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال ـ ماعدا النصيب الضئيل الذى يصرف لحملة الأسهم ، وللمودعين فى بعض الحالات ـ بينما يـكد العمال والصناع والتجار والمستهلكون وأصحاب المصانع أنفسهم كذلك ، للوفاء بالفوائد الربوية التى تعود فى النهاية على الطغمة القليـلة من الماليين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الإقراض ، ويقبضون ـ وهم قاعدون ـ ثمرة كد الجميع فى نهاية المطاف .

إن بلاء النظام الرأسمالى لا يتمثل فقط فى المظهر البارز الذى يوجه إليـه النقد ،

وهو تسخير الشعوب والحكومات لمصالح أصحاب رءوس الأموال .. فيجب تحديد الطبقة التى تسخر لها هذه الشعوب والحكومات . وهى طبقة مستترة وراء أكداس من النظريات الاقتصادية ، ووسائل الدعاية والتمويه ، والأساتذة الكبار والجامعات والقوانين واللوائح ، فى جميع أرجاء الأرض .. طبقة المرابين .. الطبقة التى تؤسس بنوك الإقراض ، وتملك سندات التأسيس . طبقة البيوت المالية القابعة هنالك فى الظلام ، حيث تعود إليها حصيلة الجهد البشرى كله .. بما فيها جهد أصحاب المصانع والتجار ، الذين يوسمون بأنهم البرجوازيون الكبار .. والنظام الربوى هو المسؤول عن هذا البلاء . هو المسؤول عن عودة حصيلة الجهد البشرى كله إلى هذه الشرذمة الصغيرة من أصحاب البيوت المالية ، ومؤسسى البنوك وحملة سندات التأسيس .

كذلك صاحب النظام الرأسمالى الانحلال الخلقى .. أولا تحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات .. سواء نظريات الحرية الفردية التى لا يجوز أن يحدها حد أو قيد . أو نظريات حيوانية الإنسان، ومادية الكون ، والتفسير المادى الاقتصادى للتاريخ .. وكلها – كما تقدم – منبثقة من حركة الهروب من الكنيسة ، والشرود من كل تفكير دينى على الإطلاق .

ولكن هنالك كذلك عاملا آخر كامنا وراء هذه النظريات كلها ، هو النظام الربوى ..

إن الذى يقترض بالفائدة لكى يقيم مشروعا من المشروعات ، لابد أن يفكر فى أربح المشروعات التى تكفل تغطية الفوائد الربوية ، وتكفل له فائضا من الربح .. والمشروعات التى تقوم على إثارة الغرائز الجنسية وتلبيتها ، والتى تقوم على إثارة الميل إلى

الترف وتلبيته . . هى أدنى المشروعات إلى الربح ، فى عالم متجرد من الهواتف الدينيـة والخلقيـة . .

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتة لأصحاب المال (الصيارفة و بيوت المال ومؤسسى البنوك وحملة السندات التأسيسية) ومعظمهم من اليهود فى العالم ، كما يصبح من سياسة الـكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا . . أن ينشروا فى المجتمع الإنسـانى حالة من الانهيار الخلقى ، ومن الترف ، ومن التفاهة ، ومن قذارة الاهتمامات ، تسمح بأن تروج فيه مشروعات الترفيه الجنسى فى شتى صوره ، ومشروعات الترف كذلك والمتاع إلى أقصى حد ، بدون حد من دين أو خلق ولا قيد .

وهكذا تصبح صناعة الأفلام المستهترة ، وصالات العرض المهيجة ، والصحافة الداعرة ، وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات . . كما تصبح صناعة أدوات الترف والزينة وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات ... إلى آخر مظاهر الانحلال والترف التى تقوم عليها مئات الصناعات فى العالم .. تصبح هذه كلها فى خدمة الرأسمالية (أى القاعدة الرأسمالية الممولة) . وتحتاج إلى فلسفات ونظريات وأساتذة وأدباء وفنانين ومشرعين وأنظمة حكم تسمح وتحمى وتشجع هذه الصناعات . ويكون لرأس المال فى هذه الأنظمة ، هـذه القوة التوجيهية ، لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات اللادينية ، مما لا يكون له حين تخضع الحياة كلها ــ والمال معها ــ لمنهج الله فى الحياة . فرأس المال لا يكون له التوجيه المؤذى إلا فى المجتمع الذى لا يهيمن عليه منهج الله ، حيث ينفرد رأس المال بالهيمنة . فأما حين يكون منهج الله هو المسيطر ، فإنه حينئذ سيوجه المجتمع وسيوجه المال المتداول فيه وجهة خيرة نظيفة ، ولن يسمح للمال أن يكون أداة بغى أو أداة فساد .

إنه ليس المال بذاته هو الذى يفسد حياة المجتمع . إنمـا هو المنهج والمذهب والنظام والتصور الذى يحكم مجتمعا من المجتمعات . .

وليست هـذه سوى لمسات سريعة جدا للحالة البشعة التى أنشأها النظام الرأسمالى ـ بينما كان يعالج التطرف بتطرف آخر ، ويعالج الداء بداء آخر ، ويتأرجح بين طرفى الـكبت والجموح ، كالحصان الذى يجمح من شدة اللجام !

ولا نملك أن ندخل فى تفصيـل المتاعب الاقتصادية التى أنشأها النظـام الربوى الذى قام على أساسه النظـام الرأسمالى . ولا أن نتحـدث عن أثر هـذا النظـام فى دورات الانـكماش والأزمات الدورية ، وويلات البطـالة والـكساد التى تصاحب هذه الدورات .

ولا نملك أن ندخل فى تفصيل ويلات الاستعمار التى اقتضاها النظام الرأسمالى ، فى أثناء البحث عن أسواق تمد الصناعات الـكبيرة بالخامات ، وفى الوقت ذاته تستهلك ماتنتجه هذه الصناعات .

كما لا نملك أن ندخل فى تفصيل ويلات الاستعمار الجديد ، الذى لا يبدو فى صورة الاحتلال العسكرى القديمة . وإنمـا يبرز فى صورة البحث عن أسواق لرؤوس الأموال الفائضة فى الدول الرأسمالية ، والتى لا تجد لها مجالا للعمل فى بلادها بسبب التشبع الصناعى. ومن ثم تبحث عن بلاد متخلفة « تتصنع » برؤوس الأموال الأجنبية ، كى يعود على هـذه الأموال الفائض الربوى . ولا تبقى متعطلة فى بلادها المتخمة . هذا الاستعمار الذى يتصارع الآن فى إفريقية بالذات ، على مرأى منا ومسمع ، فى كل مكان .

لا نملك الدخول فى تفصيلات هذه النواحى المتعددة لبلاء النظام الرأسمالى . لأن هذا أمر يطول ، ولا يتفق مع طبيعة هـذا البحث المجمل . ويمكن الاجتزاء بالإشارة إليه فى

صدد تقدير التخبط فى خطوات البشرية ، فى مجال النظم الاقتصادية والاجتماعية . وهى شاردة من الله ، ومن منهجه للحياة .

***

ثم تتمثل الطامّة الكبرى فى « النظم الجماعية » التى طبقتها أوربا فى الشرق أو فى الغرب ، على اختلاف أسمائها وأشكالها ، والتى جاءت كرد فعل للجموح الشارد فى « النظم الفردية الرأسمالية » .

إنه جموح جديد ينشأ من رد الفعل لجموح قديم . وداء جديد تعالج به البشرية من داء قديم . وتحطيم لخصائص الإنسان الأساسية فى جانب ، لإنقاذه من تحطم خصائصه الأساسية فى جانب آخر !

وكلها تجتمع عند دعوى تمليك الموارد العامة ووسائل الإنتاج إما للشعب كالفازية وإما لطبقة من الشعب كالماركسية . وحكاية تمليك هذه الموارد والوسائل للشعب أو لطبقة من الشعب ، فى تلك الأنظمة ، حكاية لايدرى أحد كيف يمكن تحقيقها عمليا ..

وفى هذا يقول « كار يوهنت » الجرى فى بحثه : « الشيوعية نظريا وعمليا » . .

« الشيوعية ــ وفقا للنظرية الكلاسيكية على الأقل ــ ترمى إلى إقامة مجتمع بلا طبقات ، يكون فيه جميع وسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل ، ملكا للجمهور ، وتختفى منه الدولة ، التى تعد أداة إرغام واضطهاد .. ولكن تقوم مع هذا ، بين الثورة التى تلغى النظام الرأسمالى و بين هذا المجتمع الشيوعى ، فترة انتقال تعرف باسم « ديكتاتورية الطبقة الكادحة » وهذه هى المرحلة التى تزعم روسيا أنها تمر بها الآن . . ومن المهم أن نلاحظ أن الروس يسمونها « الاشتراكية » (لا الشيوعية) . وأن الجمهوريات التى تؤلف الاتحاد السوفيتى يطلق عليها : « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » (لا الشيوعية) ،

لأن الشيوعية مرحلة أعلى ، مازالت فى المستقبل . والمعروف أن مقياس المجتمع الشيوعى هو أن يكون خاضعا لمبدأ : « من كل إنسان حسب قدرته ، ولكل إنسان حسب حاجته ». ولكن إذا أخذنا ما نادى به ماركس فى البداية ودأب ستالين على تكراره ، وجدنا أن مساواة كهذه مستحيلة فى الدولة الاشتراكية . ولهذا يجب أن يتحكم فيها مبدأ « من كل إنسان بحسب قدرته ، ولكل إنسان بحسب عمله » .

. . . « وحذا لينين وستالين حذو ماركس وأطلقا تسمية « الاشتراكية » على النظام الجديد ، الذى سينشأ على أنقاض الرأسمالية . ولهذا لم ترد فىالدستور السوفييتى الذى صدر فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٦ أية إشارة إلى « الشيوعية » إلا فى المادة ١٢٦ التى أشارت بالتحديد إلى « الحزب الشيوعى » ، ووصفت الاتحاد السوفييتى بأنه « دولة اشتراكية للعمال والفلاحين » . . وقد قال ستالين فى التقرير الذى أصدره عن الدستور فى ٥ ديسمبر : إن الشىء الوحيد الذى تم تحقيقه إلى الآن هو « الاشتراكية » ورفض تعديلا بإدراج هذه العبارة فى الدستور ، وهى « أن الغاية النهائية للحركة السوفييتية هى خلق مجتمع شيوعى بحت » وقال : إنه ليست لهذه العبارة صلة مباشرة بالدستور ، الذى يسعى إلى مجرد تدشين المكاسب التى تم الظفر بها فعلا . .

« وسينكر الكثيرون من الاشتراكيين ـ بلا ريب ـ حق ستالين فى وصفه هذا للنظام السياسى والاقتصادى السوفييتى الحالى . ولكننا نجد فيما يتعلق بالغايات التى يسعون إلى تحقيقها ، أن عبارتى « الشيوعية » و «الاشتراكية » قابلتان للتعديل والتغيير فى الواقع . وهو أمر يمكن لأى إنسان أن يكتشفه ، إذا راجع قاموس « أكسفورد » الإنجليزى . . فإن جوهر الاثنتين هو أن وسائل الإنتاج يجب أن تكون ملكا للشعب . . ولكن لم يتسن لإنسان إلى الآن ـ أن يكتشف كيف يمكن للشعب السيطرة على هذه الوسائل .

ولهذا أسند أمر الإشراف عليها باسم الشعب إلى الدولة أو أى هيئات أخرى تعين لهـذا الغرض . وهـكذا أصبحت الملـكية الشعبية تعنى فى الواقع رأسمـالية الدولة . وكانت الاشتراكية السوفييتية أعظم تعبير قوى مناسب لها . ولهذا فإنه من الخير لنـا قبل البحث فى الأساس النظرى للشيوعية ، أن نذكر أن الهدف النهائى لها هو نفسه هدف الاشتراكية. وأن أى خلافات بين الاثنتين إنمـا تكون على الوسيلة لا الغـاية فالاشتراكيون يرون أنهم يستطيعون إدخال نظامهم والمحـافظة عليه بوسائل ديمقراطية ، ولـكن الشيوعيين يعتقدون أن ذلك مستحيل » .

والـكارثة الفادحة فى الأنظمة الجماعية ، التى عرفتها أوربا فى الشرق وفى الغرب ـ على اختلاف مسمياتها وأشكالها ـ هى محاولة إلغاء وجود الفرد ، فى حين أن الفردية عميقة فى التكوين البيولوجى وبالتالى فى التكوين العقلى والنفسى للإنسان . واستخدام هذه الفردية بأقصى طاقتها فى إطار يوجهها إلى خير المجموع هو النظام المناسب لفطرة الإنسان . أما محـاولة كبحها وقتلهـا بشتى الوسائل ، فى تلك الأنظمة ، فهى عمليـة تدمير تامة للجهاز الإنسانى .

ومن مقتضيات هذه « الفردية » ألا يكون التنظيم الاقتصادى بحيث يضع كل شىء فى يد الدولة فتصبح ـ إلى جوار سلطاتها السياسية والقانونية ـ هى المالك الوحيد لموارد الإنتاج وأدواته ووسائله . وهى التاجر الوحيد الذى يستورد ويصدر ويبيع للأفراد . وهى « المفكر » الوحيد كذلك لأنهـا لا تسمح بالرأى المخالف ، ولا بالمناقشة لمبادئ الدولة وأفكارها ووسائلها . . والخصائص الإنسانية العامة والخصائص الفردية الخاصة ، كلهـا مهددة بالدمار فى مثل هذه الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الفطرة البشرية لا تخضع طويلا لمثل هـذه المحاولات الجائرة

على الطبيعة البشرية ، والكينونة الإنسانية . ومن ثم تضغط حتى تسحق هذه المحاولات شيئا فشيئا . وقد اضطرت الأنظمة الشيوعية (أو الاشتراكية كما تسمى نفسها) إلى التعديلات المتوالية ، التى هى فى الحقيقة « عدولات » عن كثير من الأسس الرئيسية فى المذهب . لأن ضغط الفطرة كان أقوى من أن تصمد له كل أجهزة الدولة وضغطها الساحق .

* * *

وحسبنا هذه الإشارات إلى التخبط بين طرفى المبالغة فى كل اتجاه ، وفى كل نظام ؛ والترنح فى خطوات البشرية ذات اليمين وذات الشمال ؛ وما صاحبه من مذابح رهيبة ، ذهب فيها الملايين من البشرية ، ومن مذابح كذلك للأخلاق والآداب الإنسانية ، ارتكست فيها الإنسانية فى الوحل .

وقد رأينا ـ فى اختصار وإجمال ـ هذه الظواهر فى الجوانب الثلاثة الرئيسية لحياة الإنسان متمثلة فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفى النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين . وفى النظرة إلى الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية .

وكانت هذه هى الضريبة الفادحة التى دفعتها أوربا ـ ومن ورائها البشرية كلها مع الأسف ـ لشرودها عن الله ومنهجه فى الحياة . .

حضارة لا تلائم الإنسان

إن الإبداع المادى فى هذه الأرض على يد الإنسان . . فوق أنه ضرورة لحياته ولنمو هذه الحياة ورقيها . . هو فى الوقت ذاته وظيفة أساسية له ، يحقق فيهـا وجوده ، وينمى فيها ذاتيته ، ويدرب فيها استعداداته الكامنة ، التى أودعها الله كينونته الفريدة المعقدة المركبة .. فهو وحده من بين سائر الأحياء الذى يؤدى هـذه الوظيفة عن وعى وقصد وإرادة .. ثم هو ـ بعد هذا وذلك واجب يحقق به غاية وجوده الكبرى : وهى الخلافة عن الله فى الأرض : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .. ويحقق بها العبادة لله عن طريق هذه الخلافة ، والعمل فيهـا باسم الله ، ابتغاء رضوان الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[1] ..

ولـكن هذا الإبداع المادى ـ بكل مدلولاته ـ من فلاحة الأرض ، إلى استخراج كنوزها واستخدام طاقاتهـا ، إلى إنتاج المواد الاستهلاكية للاستمتاع بطيبات الحياة ، إلى ريادة الفضاء الكونى وما قد تتيسر ريادته من الكواكب . هـذا الإبداع بكل مدلولاته يجب أن يكون فى خدمة « الإنسان » ، فهكذا أراد له خالقـه ، وهو يعلن أنه سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه .. وأن يكون ملحوظا فى هذا الإبداع وفى بناء الحضارة التى تقوم عليـه ، تنمية خصائص « الإنسان » : خصائصه كجنس يفترق عن المادة ويفترق عن الحيوان ، وخصائص أفراده الذين يؤلف كل واحد منهم

---

(١) يراجع تفسير سورة الذاريات فى كتاب : « فى ظلال القرآن » الجزء : ٢٧ ص ٢٧ ـ ٣٠

عالما خاصا - كما أسلفنا - بفرديته البيولوجية والنفسية والعقلية .. وألا يكون فى طرائق الإبداع المادى ولا فى بناء الحضارة التى تقوم عليه ، ما يناقض هذه الخصائص أو يدفنها ، أو يعوق نموها ، أو يحطمها ؛ ولا أن يهينها كذلك ويحقرها ؛ ولا أن يجعل دور الإنسان فى هذه الأرض دورا ثانويا أو تابعا للإبداع المادى ، بأى حال من الأحوال .

وليس هنالك تعارض إطلاقا بين أن يظل « الإنسان » سيد هـذه الأرض ، وأن تنمى خصائصه الجنسية والفردية ، وتؤكد شخصيته كجنس وكفرد ، وبين أن ينمو الإبداع المادى ويتجدد ويترقى ..

وليس الأمر أنه ليس هنالك تعارض - فحسب - بل هنالك تناسق بين هذا وذلك حين تستقيم النظرة إلى الإنسان ، ومركزه فى هذا الوجود ، ودوره فى هـذه الأرض ، وخصائصه التى زود بها من لدن خالقه العظيم ، وواجبه الذى كلفه والذى خلق من أجله ..

ولـكن صانعى هذه الحضارة الحديثة - ولو أنها حلقة من حلقات الحضارة الإنسانية غير منفصلة عنها فى جذورها العميقة - لم يكن لديهم العلم بحقيقة هذا الإنسان وخصائصه . كما أنه لم تـكن لديهم الرغبة فى احترامه وتـكريمه .

لم يكن لديهم العـلم ، لأن هذه الحضارة بدأت ونمت خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، بينما الجهالة المطلقة بالإنسان لا تزال قائمة حتى اللحظة . وليس هنالك ما هو صحيح وثابت عنه إلا ما أخبر به عنه خالقه العظيم .. والحضارة المادية الحديثة نشأت فى جو الشرود من الـكنيسة ، والنفور من ظلها ، ومن ظل الدين .. كل الدين ..

ولم تـكن لديهم الرغبة ، لأن أية محاولة لتـكريم الإنسان ، كانت ستذكّر بمركزه الذى يعطيـه الدين له .. وكل شىء كان جائزا فى أوربا إلا أن تجىء سيرة الدين . وأن

تـكون لهذا الدين أية علاقة بأوضاع الإنسان « المدنية » و بالنظم الاجتماعية والاقتصادية ، و بعلاقات العمل وارتباطاته وطرائقه الفنية ! بل كانت تتوافر عندهم الرغبـة المضادة ، والحرص البالغ ، على تحقير الإنـسان ، وتدنيسه وتلويثه ، و إثبات حيوانيته وقذارته الجنسية من جهة ؛ وضآلة دوره بإزاء المادة وقوانينها الحتمية ، والاقتصاد و إرادته القاهرة من جهة أخرى ، كأنما هم أعداء لهـذا « الجنس الإنسانى » حريصون ـ فى شماتة ظاهرة ـ على إبرازه يتلبط فى المستنقع و يتلطخ بالأوحال . كل ذلك ليقولوا للـكنيسة : خذى إلٰهـك ودينك ، وخذى معهما إنسانك هذا الذى تزعمين أن الله قد نفخ فيه من روحه واذهبى بعيدا عنا وعن حياتنا الواقعية !!!

وأيًا ما كانت الملابسات التى أدت إلى هـذه المأساة ، فإن الحقيقة الواقعـة ، أن هذه الحضارة الحديثة ـ ولو أنهـا قامت ابتداء على أسس الاتجاهات التجريبية العلمية التى اقتبستها أور با من الأندلس ومن الشرق الإسلامى ، النابعة ابتداء من التوجيهات القرآنية لتدبر النواميس واستغـلال الطاقات والمدخرات فى الأرض ، ومن روح الإسـلام الواقعية الإنسانية ، إلا أنها حين انتقلت إلى أور با لم تنتقل بجذورها الفلسفية ، إنمـا انتقلت علوما وطرقا فنية ، ومناهج تجريبية . وصادفت ذلك « الفصام النـكد » (1) بين الدين والنهضة الحضارية . ومن ثم لم يلحظ فى بنائها هـذا « الإنسان » المفروض أنه صانعها ، وأنها من أجله صنعت . وكذلك أصبحت لا تلائم هذا « الإنسان » بل تسحق خصائصه الأساسية التى تجعل منه هـذا الـكائن الفذ الفريد فى الـكون ، والتى بدونهـا لا يملك هـــذا الـكائن أن يؤدى دوره . كما أن إغفال بعضها فى أى نظـام اجتماعى أو اقتصادى ، وفى أية حضارة ، من شأنه أن يحدث الاختلال فى الـكينونة البشرية ، ويقضى لا على الجوانب التى أغفلت فحسب ، بل كذلك على الجوانب الأخرى ، نظر

(1) يراجع بتوسع فصل « الفصام النـكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

لأن الجهاز الإنسانى كل مركب متناسق ، يعمل فى الواقع كوحدة فى كل نشاط يبذله ، ولا يوجد مجزءا إلا فى عالم البحوث العقلية والمعملية .

***

ونعود إلى الاقتباس من تقريرات الدكتور ألكسيس كاريل عن هذه الحضارة وعن نشأتها ، وعن عدم ملاءمتها للإنسان ، وعن الخصائص الإنسانية التى تهملها أو تحطمها :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا . . . (ص ٣٨) .

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية . إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ : الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف ، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال [1] . وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم » . (ص ٤٠)

« وهؤلاء النظريون يبنون حضارات ، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان ،

---

(١) والحال لا يختلف من ناحية أثر المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعامل إذا كان الإنتاج ملكا للشعب أو لطبقة منه ــ أى للدولة ــ إذا ظلت طريقة العمل واحدة .

إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهوّلة للإنسان . إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة . . فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين ، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين) . فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية مازالت غير معروفة . فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية » ... (ص ٤٣)

« يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شىء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . . . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا . . إننا قوم تعساء . لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . . إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها . وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات ـ التى سبقتها ـ أوجدت أحوالا معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة . وذلك لأسباب لا تزال غامضة » . . (ص ٤٣ ـ ٤٤)

« ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التى وضعتها الإنسانية فى الحضارة العصرية ، فقد أخفقت هذه الحضارة فى إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجراءة يقودونها عبر الطريق الخطر الذى تتعثر فيه . لأن بنى الإنسان لم ينموا بالسرعة التى تثب بها الأنظمة من عقولهم . ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر

هو النقص العقلى والأدبى الذى يعانى منه الزعماء السياسيون » ... (ص ٣٧) .

« إن العقل . وقوة الإرادة ، والأخلاق ، ترتبط ارتباطا وثيقا . بيد أن الإحساس الأدبى أهم بكثير من العقل . وحينما ينعدم هذا الإحساس من أحد الشعوب ، فإن كيانه الاجتماعى كله يبدأ فى الانهيار البطىء » ... (ص ١٦٠) .

« إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى . وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بنى الإنسان ـ إلى حد كبير ـ للنقائص الموجودة فى جوهم السيكلوجى . إذ أن تفوق المادة ومبادىء « دين الصناعة » حطمت الثقافة والجمال والأخلاق» ... (ص ١٨٤)

« يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الإحساس الأدبى إهمالا تاما . بل لقد كبتنا مظاهره فعلا . . . فقد أشربنا جميعا الرغبة فى التخلص من المسؤولية . أما أولئك الذين يميزون الخير من الشر ، ويعملون ويتحفظون ، فإنهم يظلون فقراء ، وينظر إليهم بضيق وتأفف . والمرأة التى أنجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم ، بدلا من الاهتمام الخاص بنفسها ، تعتبر ضعيفة العقل . و إذا ادخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده ، سرق منه هـذا المبلغ بواسطة الماليين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة » . . . (ص ١٨٥) .

« إن المادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا ، لا تقاوم السمو العقلى فحسب . بل إنها تسحق أيضا الشخص العاطفى ، واللطيف والضعيف ، والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال » ... (ص ٣٧١) .

إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفى ، أو الجمالى ، أو الدينى ، يخلق أشخاصا فى المرتبة

الدنيا ، ذوى عقول ضيقة مريضة . وبالرغم من أن التعليم العقلى يهيأ الآن لكل فرد ، إلا أننا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلا الأشخاص فى كل مكان . . وعلى كل حال فإن الثقافة العالية ليست ضرورية لتخصب الشعور بالجمال ، والإحساس الدينى ، ولتذتج فنانين وشعراء ، ورجال دين ، وجميع أولئك الذين يتأملون مختلف وجوه الجمال . . وهذا الذى نقوله صحيح أيضا بالنسبة للإحساس الأدبى وأصالة الحكم . . وجميع ألوان النشاط هذه تكاد تكون كافية فى حد ذاتها . . إنها لا تحتاج إلى الاقتران بالذكاء الحاد لكى تهيئ للإنسان استعداده للسعادة ، فيجب أن يكون نموها هو الهدف الأسمى للتعليم لأنها تهيئ التوازن للفرد . إنها تجعل منه حجرا صابا فى الصرح الاجتماعى ، ولا شك فى أن الإحساس الأدبى ضرورى أكثر من الذكاء بالنسبة لأولئك الذين يعملون على زيادة الحضارة الصناعية (ص ١٦٨ - ١٦٩)

« ويظل تذوق الجمال كامنا (مكبوتا) فى أغلب الأفراد ، لأن الحضارة الصناعية أحاطتهم بمناظر قبيحة كريهة خشنة . ولأننا تحولنا إلى آلات . فالعامل يقضى حياته ، وهو يكرر الإشارات والحركات نفسها آلاف المرات فى كل يوم . . إنه يصنع قطعا مفردة فقط ، ولكنه لا يصنع وحدة كاملة مطلقا . أى أنه غير مسموح له باستعمال عقله . إنه الحصان الأعمى الذى يدور فى دائرة واحدة طول النهار ليخرج الماء من البئر . إن الصناعة تحرم على الإنسان استخدام وجوه نشاطه العقلى التى يمكن أن تجلب له قسطا من المتعة كل يوم . . لقد ارتكبت المدنية الحديثة خطأ كبيرا دائما بتضحية العقل فى سبيل المادة . خطأ تزداد خطورته يوما بعد يوم لأن أحداً لا يثور ضده ، ولأن الجميع يتقبلونه بسهولة كما يتقبلون الحياة غير الصحية فى المدن الكبرى والسجن فى المصانع . ومع ذلك فإن أولئك

الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائى بالجمال فى عملهم ، أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . . إن الصناعة ـ بشكلها الحالى ـ حرمت العامل من الابتداع والجمال . وتعزى خشونة حضارتنا وكآبتها ـ ولو جزئيا ـ إلى الكبت الذى نعانى منه فى حياتنا اليومية ، التى لا تشتمل إلا على أبسط أشكال الاستمتاع بالجمال » (ص ١٦١ ـ ١٦٢) .

« يتجاهل المجتمع العصرى الفرد ، فهو لا يحسب حسابا إلا « لبنى الإنسان » فقط . إنه يؤمن بحقيقة « الكونيات » ويعامل الناس كخلاصات . ولقد أدى اضطراب الأمر فيما يتعلق بالفرد ، وبنى الإنسان ، إلى وقوع المدنية الصناعية فى غلطة جوهرية . وهى معاملة الناس على أساس قواعد مرسومة . فلو أننا كنا جميعا متساوين لأمكن أن نربى ونعيش ونعمل فى قطعان كبيرة أشبه بقطعان الأغنام . بيد أن لكل منا شخصيته الخاصة ولا يمكن أن يعامل كرمز » . . . (ص ٣١٨)

« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطامعهن الاجتماعية ، أو مباذلهن ، أو هواياتهن الأدبية أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما . . . وهكذا يضيعن أوقاتهن فى الكسل . إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم منهم أمورا كثيرة . . إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع أخرى من نفس عمرها فى حظيرة واحدة ، لا تنمو نموا مكتملا كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك

الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجودة فى محيطه . إذ أنه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه . وحينما يكون مجرد وحدة فى المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة ، فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة » . . . (ص ٣١٨ - ٣١٩)

« إن إهمال مؤسساتنا الاجتماعية للفردية مسؤول أيضا عن ضمور الراشدين . لأن الإنسان لا يتحمل - دون أضرار - طريقة الحياة ، وتشابه العمل السخيف المفروض على موظفى وعمال المكاتب والمصانع ، وعلى جميع من يساهمون فى الإنتاج الضخم » . . . (ص ٣١٩) .

* * *

ويختم الرجل هذه التقريرات التى اقتطفنا اليسير منها ، والتى تتناثر فى كتابه كله ، وتتجمع عند إحساس واحد : هو الإحساس بخطر هذه الحضارة على « الإنسان » ومقوماته الذاتية ، وخصائصه الإنسانية . . يختمها بهذا التقرير الذى يحمل طابع الإنذار . والذى - مع أنه يصدر عن « عالم » - يشبه صرخات الإنذارات الدينية للعصاة :

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها المجتمع العصرى .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى جسمه وشعوره ، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله . وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .. لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك

الخطيئة العظمى . الخطيئة التى يعاقب مرتـكبها دائما . . إن مبادئ « الدين العلمى » والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو « الحقيقة البيولوجية » . . فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تُستأذن فى ارتياد الأرض المحرمة . . هى إضعاف السائل . . ولهـذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار ، لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا فقبلنا هداياها جميعا بلا تمييز ولا تبصر . . ولقد أصبح الفرد ضعيفا ، متخصصا، فاجرا ، غبيا ، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته » (ص ٣٢٢) .

ثم يعقب هذا الإنذار بصيحة أخرى فيما ينبغى عمله فى فصل طويل فى كتابه بعنوان: «إعادة إنشاء الإنسان » وفيه يقول : ــ

« يجب علينـا أن نعيد إنشاء الإنسان ــ فى تمام شخصيته ــ الإنسان الذى أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة . . كذلك يجب أن يحدد الجنسان مرة أخرى . فيجب أن يكون كل فرد إما « ذكرا » وإما « أنثى » فلا يظهر مطلقا صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه . وبدلا من أن يشبه الآلة التى تنتج فى مجموعات يجب على الإنسان ــ بعكس ذلك ــ أن يؤكد وحدانيته . . ولـكى يفيد تـكوين الشخصية يجب أن نحطم هيكل المدرسة ، والمصنع والمـكتب ، وأن ننبذ مبادئ الحضـارة التـكنولوجيـة نفسها » ... (ص ٣٦٨) .

ومن قبل يقول فى تقديمه لـكتابه إنه « كذلك كتب لأولئـك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ، ليدركوا ــ ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقليـة وسياسية

واجتماعية ـ بل أيضا .. ضرورة قلب الحضارة الصناعية ، وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى » ... (ص ١٢) .

* * *

هذه المقتطفات توسعنا فيها ـ كما توسعنا فى المقتطفات التى نقلناها عن دكتور كاريل فى فصل « الإنسان ذلك المجهول » ـ عن عمد بوصفها شهادة من رجل أول صفاته أنه « عالم » دارس لموضوعه ، متمكن منه . ثم هو من الناشئين فى كنف هذه الحضارة التى يثور عليها هذه الثورة ، ومن المؤمنين بالعلم ، الذى يعلن عن عجزه وقصوره هذا الإعلان ..

وهذه المقتطفات ـ وحدها ـ تكفى للدلالة العميقة على أن هذه الحضارة « حضارة لا تلائم الإنسان » . لأنها قامت دون معرفة بطبيعته ، وسارت فى طريقها دون اعتبار لخصائصه ، ودون اعتبار كذلك لما تنزله به من ويلات .

وفى الطريق أهدرت خصائصه كجنس ، وأهدرت خصائصه كفرد ، وأهدرت خصائص الذكورة والأنوثة . . فى سبيل توفير إنتاج ضخم ، تعود أرباحه إلى عدد محدود من الجشعين ، وفى أحسن الحالات فى سبيل تيسيرات مادية ورفاهية مشكوك ـ على الأقل ـ فيما إذا كانت ذات فائدة حقيقية للإنسان ، ومقطوع بدون شك بأنها لا تساوى ما أهدر فى سبيلها من « إنسانية الإنسان » وخصائصه كجنس ، ومن إهدار خصائص الفردية الواضحة فيه ، ومن إهدار خصائص المرأة والرجل والأسرة والطفل . وكل مقومات الحياة .

وليست هذه كل مآخذنا على هذه الحضارة ، ولا على الحياة التى تقوم عليها. وكذلك

ليست هـذه زاوية نظرتنا إليهـا تماما . فهناك اختلافات فى تشخيص « الداء » أو فى « تـكييف الموقف » بيننا و بين الرجل ـ كما سنبين فى الفصل قبل الأخير من هـــذا الـكتاب ـ كما أن الاختلافات بيننـا و بينه تـكثر وتتسع عنـــد « وصف الدواء » وطريقة العلاج .

فالرجل محـكوم فى تفـكيره كله ـ على الرغم من سعة أفقه ورحابة نفسه و إخلاصه العلمى ـ بتاريخ بيئته الحضارية ، و برواسب ووراثات فـكرية وشعورية وتاريخية ، لا يملك الخلاص منها . مهما بدا له أنه تحرر من كل هذه الضغوط .

ونذكر على سبيل المثال حديثه عن كبت هذه الحضارة للنشاط الدينى للأفراد الذين يعيشون فى ظلها ، وأثر هذا الـكبت فى خلق أشخاص فى المرتبة الدنيا .

إن صورة معينة من صور « النشاط الدينى » هى التى تخايل له فى كل حديثه المتفرق فى الـكتاب عن هـذا الجانب . صورة مزاولة العقيدة مزاولة روحية بحتة . كما يزاول الفرد نشاطه الفنى والجمالى والأدبى . وهو يلحق النشاط الدينى بهذه الألوان من النشاط ، بوصفه واحدا منهـا . .

هذه الصورة مستمدة من التصورات الدينية كما هى سائدة فى أوربا ، باعتبار الدين نشاطا روحيا فرديا يتمثل فى الصلاة والدعاء ، والمناجاة ، والتصوف إلى آخر صور النشاط الفردى (الروحى) للعقيدة . .

وهو يعيب على الحضارة الصناعية كبتها لهذا النشاط فى هذه الصورة .

وعلى الرغم من شفافية شعوره بهذا الجانب ، ورفرفة روحه وهو يتحدث عنه ، وتجاربه الذاتية فى هذا الحقل . .

على الرغم من هـــذا كله فهو لا يتمثل الدين ـ كما نتمثله نحن ـ منهج حياة كامل

.. هذا النشاط الذى يصفه جانب واحد من جوانبه .. وهو منهج يسيطر على هذا النشاط « الروحى » كما يسيطر على النشاط الفنى والجمالى والأدبى .. كما يسيطر أيضا على النظام الاجتماعى والاقتصادى ، والحضارى كله .. فمنه تنبع وإليه ترجع ، كل هـذه الألوان من النشاط ، فى كل جانب من جوانب الحياة .

وجناية الحضارة الراهنة ، وسبب فسادها الأساسى ، وإهدارها للقيم الإنسانية والخصائص الإنسانية ، والمقومات الفردية . . . وكل مايدمغها به دكتور كاريل بحق ، يكمن فى رفضها ابتداء أن يـكون للدين ـ بوصفه منهجا للحياة من عند الله ـ هـذه الاختصاصات وهذا السلطان . أى رفضها لألوهية الله سبحانه . هذا الرفض المتمثل فى اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ، ولو لم تعلن رفضها لألوهيـة الله جهرا ـ كالبلاد الشيوعية ـ فاتخاذ مناهج من صنع البشر هو رفض لألوهية الله قطعا .

وهذا الرفض سابق على قيام هذه الحضارة . وله أسبابه الخاصة فى التـاريخ الأوربى من ناحية ، وفى تاريخ النصرانية فى أوربا من ناحيـة أخرى . وله ما يفسره كذلك .[1] وبسبب هـذا الرفض القديم ـ منذ أيام النهضة ـ وارتداد أوربا إلى الوثنيـة الرومانية . قامت الحضارة الحديثة على قاعدة لا دينية .. ومن هذه الثغرة جاءتها كل الآفات ، وجنايتها الحقيقية على « الإنسـان » تنبع كلها من هذا المصدر الخبيث . وإهدارها للقيم الإنسانية ، والخصائص النوعية والفردية ، مرده كله إلى هذا المنبت النـكد .

وفى هـذا « التشخيص » نختلف كل الاختلاف مع دكتور كاريل . نختلف فى أننا نبدأ من الجذور العميقة ، بينما يبدأ هو من أحـد الفروع وهو « تخلف علوم الإنسان عن

---

(١) يراجع فصل « الفصام النـكد » فى كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

علوم المادة » وفى أننا ندرك حدود النشاط الدينى التى تكبتها هذه الحضارة فى مداها الواسع الشامل لكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

ومن ثم نختلف فى وصف العلاج .. على ذات المستوى .

ولكن هذا ليس مكانه هذا الفصل فسنعالجه فى الفصل قبل الأخير عند اقتراح « طريق الخلاص » .

وحسبنا هنا أن نشير إلى أصل الفساد فى منابت شجرة الحضارة الراهنة ، إلى جانب الظواهر المتنوعة التى عرضها دكتور كاريل فى إدراك سليم ، و إخلاص أكيد فى كتابه القيم . بوصفه أحد العلماء الكبار ، الذين يعتمدون على « العلم » وحده فى الملاحظة والتشخيص والعلاج .

عقوبة الفطرة

لم يكن بد ، وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه . . وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلٰهه هواه . وجهل الإنسان نفسه كذلك وراح يخبط فى التيه بلا دليل . وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل ومن ذلك الهوى . واعتدى على فطرته التى فطره الله عليها فى حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيوانا ــ وقد أراده الله إنسانا ــ وجعل نفسه آلة ــ وقد أراده الله مهندسا للآلة . بل جعل الآلة إلٰها يحكم فيه بما يريد . وجعل المادة إلٰها يحكم فيه بما يريد . وجعل الاقتصاد إلٰها يحكم فيه بما يريد ــ وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة ، وسيد الاقتصاد . ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيوانا لطيفا ــ كما أن الرجل حيوان خشن ــ غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع . ونسى أن الله يرفع هذه العلاقة ويطهرها ويزكيها ، وينوط بها امتداد الحياة من جهة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ، ويربط بها عجلة التمدن الإنسانى ، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل ، ويجعل من المرأة حارسة الإنتاج النفيس . . نتاج المادة الإنسانية . . ويصونها من التبذل كى لا تكون مجرد أداة لذة . ويصونها من الاشتغال بإنتاج المواد فى المصنع ، وهى فى الأسرة تنتج وتحرس مادة « الإنسان » .

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه « الإنسانية » ليحصر طاقته فى الإنتاج المادى ؛ وأقام حياته كلها على أساس مادى ، وتصور مادى ؛ وكبت الجوانب الحية المرفرفة اللطيفة فى حسه ، والتى وهبها الله له لأنه « الإنسان » الخليقة الفذة فى هذا الكون ، التى تشمل المتناقضات كلها فى تناسق بديع .

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على الربا ، ليكد القطيع البشرى كله فى خدمة بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية والبنوك المرابين ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية فى أقاصى الأرض ، وهم قابعون وراء المكاتب الفخمة ، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والإعلام !

وفى النهاية .. لم يكن بد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله ؛ فاتخذ من المال إلٰها، ومن الهوى إلٰها ، ومن المادة إلٰها ، ومن الإنتاج إلٰها ، ومن الأرض إلٰها ، ومن الجنس إلٰها ، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله فى التشريع لعباده، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله . . كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته !!! .

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحل به عقوبة الفطرة ، وأن يؤدى ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة ..

وقد كان ..

كان .. وأداها من نفسه وأعصابه . ومن بدنه وعافيته . ومن سعادته وطمأنينته . ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه وآخرته .

أداها ــ وفى الأمم التى بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات ــ تناقصا فى النسل يهدد

بالانقراض . وتناقصا فى الخصائص الإنسانيـة يوحى بالنكسة إلى البربرية . وتناقصا فى الذكاء والمستوى العقلى يهدد بانهيار العلم الذى قامت عليه الحضارة ، وبانهيار الحضارة ذاتها فى النهاية .

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التى لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة ؛ وآثار القلق على المستقبل فى المجتمع المادى المتناحر ، وآثار الخواء الروحى الذى تفرضه الفلسفات والأوضاع فى المدنيـة الكافرة . . ظهرت آثارها فى صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية والعته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة .

وظهرت آثار التوجيه المتواصل إلى حيوانية الإنسان وماديتـه وسلبيته ، وإطلاق شهواته وغرائزه من كل ضابط . . ظهرت فى صورة الانحلال ، واللامبالاة ، والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات ، وحيـاة القطيع ، التى لا هدف لهـا إلا السفاد واللقـاح والطعام والشراب .

وكتب على البشرية كلها أن تؤدى الضريبة فادحة صارمة ثقيـلة : حروبا رعيبة ضحاياها بالملايين قتـلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين . وأزمات تلو أزمات .. أزمات إذا قل الإنتاج وأزمات إذا زاد الإنتـاج . أزمات إذا مال الميزان التجارى إلى العجز وأزمات إذا مال الميزان التجـارى إلى الزيادة . أزمات إذا نقصت المحصولات وأزمات إذا فاضت المحصولات . أزمات إذا قل النسـل وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، فيخرون أمواتا بالسكتة وتفجر المخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين ، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون .. وما سلطت

عليهم سوى أنفسهم . وما كان إلا نذير الله الذى لم تتفتح له القلوب والآذان .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب » . . .

(البقرة : ٢١١)

« ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » ... (البقرة : ١٠٨)

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ... (الأعراف : ١٧٥-١٧٦)

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا - وأحل الله البيع وحرم الربا - فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » . . .

(البقرة : ٢٧٥-٢٧٦) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا - إن كنتم مؤمنين - فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ... (البقرة : ٢٧٨-٢٧٩)

« والعصر إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » ... (سورة العصر)

* * *

والآن نأخذ فى عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخمها فى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة . . فنستوفى بهذا عناصر المأساة الأربعة - كما أشرنا إليها فى مقدمة هذا البحث .

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة . ومن بيئات مختلفة : منهم العالم المحقق : المؤمن بالعلم ، المعتمِد عليه فى مواجهة المأساة . . ولا سواه . . ومنهم الفيلسوف الذى لا يؤمن بالدين ، ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذى تتردى فيه البشرية . . ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم و بفطرة الإنسان ، العارف فى الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء فى مجال المعرفة و مجال العلاج .. ومنهم الطبيبة التى تقدر جدِّية الموضوع ، فتعالجه بالجد الذى يستحقه . ومنهم الصحفى الذى لا يعنيه من المسألة إلا العرض الصحفى والتشويق والإغراء .

وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها ، لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات، واستدعاء كل الشهود ، فى فصل من كتاب !

* * *

يبدأ الدكتور ألكسيس كاريل شهادته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه « القوانين الطبيعية » ـ ونسميه نحن « قوانين الفطرة التى فطر الله الناس عليها » ـ والعواقب التى لابد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التى لا تلين ، ولا تترك مخالفيها بلا عقوبة ، ثم يأخذ فى بيان ماحل بالبشرية فعلا من هذه العقوبة :

« قبل أن أبدأ هذا الكتاب ، كنت أدرك تماما صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريبا . ولكننى شرعت فيه ، لأننى كنت أعلم أن شخصا ما لابد سيؤديه . . لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية فى مجراها الحالى ، لأنهم آخذون فى التدهور والانحطاط . لقد فتنهم جمال علوم الجماد . إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ـ وهى قوانين أكثر غموضا وإن كانت تتساوى فى الصلابة مع القوانين الدنيوية ـ كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم. ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوى ، ولأترابهم

أبناء آدم ، ولذاتهم الداخلية ؛ وتلك التى تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء فى الدنيا ، فإذا انحط وتدهور ، فإن جمال الحضارة ، بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى . . لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب » ... (ص١٠-١١)

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير ، التى يفرضها عليه المجتمع العصرى .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى جسمه وشعوره وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها التكنولوجيا ، وأن مثل هـذه البيئة تؤدى إلى انحلاله . وأن العلم والميكانيكا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن وحـدنا المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقـد نقضنا قوانين الطبيعة ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائما . . إن مبادئ « الدين العلمى » والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقـة البيولوجية » .. فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد الأرض المحرمة .. هى إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار . لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا . فقبلنا هداياها جميعا بلا تمييز ولا تبصر . ولقد أصبح الفرد ضيقا ، متخصصا ، فاجرا ، غبيا ، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته [1] ... (ص ٣٢٢)

« إن الصفة الغالبة على الفرد فى الحضارة العصرية هى الإفراط فى النشاط الذى يوجه كله نحو الجانب العملى من الحياة . كذا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء . وأيضا بنوع من الضعف العقلى ، الذى يتركه تحت تأثير البيئة التى يتفق وجوده فيها .. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق » ... (ص٣٦)

---

(١) سبق أن اقتطفنا هذا النص فى الفصل السابق وأثبتناه هنا لضرورة دلالته .

« يبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة. ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسؤولين عن الشؤون العامة » ... (ص ٣٧)

« إننا قلما نشاهد أفرادا يتبعون مثلا أخلاقيا أعلى في تصرفاتهم في المدنية العصرية » ... (ص ١٦٠)

« إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . إن الصناعة ـ بشكلها الحالي ـ حرمت العامل من الابتداع والجمال » ... (ص ١٦٢)

« إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي والجمالي أو الديني يخلق أشخاصا في المرتبة الدنيا ذوي عقول ضعيفة غير سليمة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهيأ الآن لكل فرد ، إلا أننا مازلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان » ... (ص ١٦٨)

« فأكثر الناس تمدينا يظهرون شكلا بدائيا فقط من الشعور . إنهم قادرون على العمل السهل ، الذي يؤمّن حياة الفرد في المجتمع العصري . إنهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية . وهم أيضا يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية ، والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة . كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أي جهد ، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة . إنهم ناعمون ، عاطفيون ، شهوانيون ، قساة ، مجردون من الإحساس الأدبي والديني والشعور بالجمال » . . .

(ص ١٦٩)

« إن عدم التناسق في دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا » . . . (ص ١٧٠)

« في استطاعة التفكير أن يولد أمراضا عضوية بصفة عامة . ومن ثم فإن عدم

استقرار الحياة العصرية ، والانفعال الدائم ، وانعدام الأمن ، تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء . كذا نقص التغذية ، وتسرب الجراثيم المعوية إلى الدورة الدموية . . والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هى إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلى والأدبى . . ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة فى الجماعات التى تحيا حياة بسيطة ، وليست على القدر الذى ذكرناه من الانفعال ، كما أن القلق فيها غير دائم . . وبالمثل فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية ، وسط ضوضاء المدنية الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية » . . . (ص ١٧٧) .

« يجب أن يظل النشاط الفسيولوجى خارج حقل الشعور . إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتمامنا . ولذلك فإن « التحليل النفسى » حينما يوجه عقل المريض نحو نفسه ، قد يزيد من حالة عدم التوازن . ومن ثم فإنه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله ، بدلا من الاستغراق فى تحليل نفسه . . إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة ، نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق . لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضربا من السلام الداخلى . ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل . . ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط أو الجبال والسحب ، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء ، والمبادئ السامية التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التى تعبر عن القوانين الطبيعية . . وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التى تكافح لبلوغ مثل أدبى عال ، وتبحث عن النور فى ظلمات هذا العالم ، وتسير قدما فى طريق الدين ، وتنبذ نفسها لكى تفهم الأساس

غير المنظور لهـذا العالم . إن توحيد نشاط الشعور يؤدى إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية .

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية ، والإجرام ، والجنون ، بين الجماعات التى نما فيها الشعور الأدبى والعقلى فى وقت واحد، كما يـكون الفرد أكثر سعادة فى مثل هذه الجماعات » (ص ١٧٧ ـ ١٧٨)

«إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بنى الإنسان ـ إلى حد كبير ـ إلى النقائص الموجودة فى جوهم السيكلوجى . إذ أن تفوق المـادة ، ومبادىء دين الصناعة حطمت الثقافة والجمـال والأخلاق ـ كما عرفتها الحضارة المسيحية أم العلم الحديث[1] . كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التى لها شخصيتها وتقاليدها الخاصــة ، تحطمت بفعـل التغيرات التى طرأت على عاداتهـا . وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشارا واسع المدى ، كذا الأدب الرخيص ، والراديو ودور السينما . . ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبيــة آخـذ فى الازدياد أكثر فأكثر ، بالرغم من كمال المنـاهج التى تدرس فى المدارس والـكليات والجامعات . . ومن العجيب أن بلادة الذهن توجـد غالبا حيثما تتقـدم المعرفة العلمية !

« إن أطفال وطلبة المدارس يكوّنون عقلهم من البرامج السخيفة التى توضع لوسائل

---

(١) هـذا التقرير عن أن المسيحية أم العلم الحديث يخالف الواقع التاريخى . فالمسيحية ـ كما عرضتها الـكنيسة ـ وقفت وقفة عنيدة فى وجه المناهج العلمية الحديثة التى جاءت إلى أوربا من العالم الإسلامى . وكانت هذه الوقفة من الأسباب الأصيلة للفصام النكد فى أوربا بين العلم والدين ، وبين الدين والحيـاة أيضاً . . (يراجع فى هـذه القضية كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف محمد أسد ، وترجمة عمر فروخ) .

التسلية العامة . ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بشكل قوتها بدلا من أن تعمل على هذا النمو » . (ص ١٨٤)

« كما أن الشذوذ الجنسي آخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانبا ، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية . ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب . والعدل والظلم . فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان ، وليس هناك من يبدى اعتراضا على وجودهم . . ولقد جعل القساوسة الدين شبيها بالتموين لكل فرد منه قسط معين . وحطموا الأسس الغامضة ، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم العصريين . ومن ثم فإنهم يعظون عبثا أصحاب الأخلاق الضعيفة في كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع .

«إنهم قانعون بدور رجال البوليس الذى يؤدونه . فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم ، لكى يحفظوا إطار المجتمع الحالى ، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة » ! . . . (ص ١٨٦)

« ليس العقل قويا كالجسم . ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عددا من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم . . ويقول س . و . بيرس : « إن شخصا من كل ٢٢ شخصا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر » . . وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية ، وما يماثلها من المؤسسات ، حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد المجانين فى السير

على هذا المعدل ، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلا أو آجلا !

« ففى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠٫٠٠٠ مجنون، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١٫٥٨٠، وكان عدد مطاقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠٫٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠٫٠٠٠ شخص ضعاف العقول . ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠٫٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم .. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليا أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية ، مصابون باضطرابات نفسية [(١)] . وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى . فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى . بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء [(٢)] حاليا .. على أنه يجب أن يكون مفهوما أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجدون بها بين أفراد الشعب!

(١) هذه كلها إحصاءات قديمة . وقد تضاعفت أكثر من مرة فى هذه الفترة .

(٢) إن الذى يقلق بال الرجل هو فقط الخطر على الأجناس البيضاء . . وهذه إحدى عقابيل العقلية الغربية فى شقوة البشرية . ولم يستطع الرجل العالم الواسع الأفق أن يتخلص منها !

صحيح أن عددا كبيرا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة ، ما زالوا مطلقى السراح .

« ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذى تعانى منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقا إلى تحسين صحتنا العقلية » ... (ص ١٨٧-١٨٨) .

« هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدى مباشرة إلى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض » . . . (ص ٢٦٤) .

« إن فى استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة فى الرجال العصريين ! بل إن بعض المراقبين يرتابون فى حقيقتها « فتيودور درizer » يعتبرها أسطورة خرافية ! والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشابها كبيرا فى ضعفهم العقلى والأدبى . فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد . إنهم خليط من الأشخاص مضطربى الأعصاب بليدى الشعور ، مغرورين معدومى الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عضلية ، وإن كانوا سريعى التعب . يعانون حدة الدافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحيانا » ... (ص ٣١٦) .

* * *

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة « بالإنسان » عامة فى الحضارة العصرية . . وهناك جانب آخر أحببنا أن نفرده وحده . وهو شهادته فيما يختص بقضية المرأة ، وعلاقات الجنسين فى هذه الحضارة ، وأخطارها على وجود الجنس البشرى ، وعلى مستواه العقلى والأدبى .

ونحب أن ندعه هو يدلى بشهادته « العلمية » دون تعليق :

« علينا أن نستوثق من الكيفية التى ستؤثر بها طريقة الحياة فى مستقبل الجنس . لقد كانت استجابة النساء للتعديلات التى أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة ، إذ نقص معدل المواليد فورا . وقد تبين أثر ذلك بوضوح ، كما لمست نتائجه الخطيرة فى الطبقات الاجتماعية وفى الأمم التى سبقت غيرها فى الانتفاع بالتقدم الذى حققته — إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة — بتطبيق الاكتشافات العلمية . فالتعقيم الاختيارى ليس جديدا فى تاريخ العالم . فقد عرف فى مرحلة معينة من مراحل المدنية السابقة . . إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها [1] » ... (ص ٣٧) .

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . . إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ؛ ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض . . . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة . . والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى . فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن

(١) لعله يشير إلى ما وقع من هذا فى أواخر أيام الحضارة الإغريقية ، وأواخر أيام الحضارة الرومانية . وأدى فى كلتا الحالتين إلى سقوطها واندثارها !

مضطرون إلى قبولها كما هى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » ... (١١٤) .

« إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو فى تكوين نواة البويضة ، التى تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد . ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة . . وهكذا تلعب دورا أهم من دور الأب فى تكوين الجنين » . . . (ص ١١٥) .

« إن دور الرجل فى التناسل قصير الأمد . أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر . وفى خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التى تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين . وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة . فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريبا من الأب مثلما ينشأ من الأم . فإن مخلوقا من أصل غريب - جزئيا - قد اتخذ له مأوى فى جسم المرأة . فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل . وقد تتسمم المرأة فى بعض الأحيان بواسطة جنينها ، كما أن أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل به دائما . . وعلى أى حال يبدو أن النساء - من بين الثدييات - هن فقط اللائى يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين . كما أن النساء اللائى لم يلدن لسن متزنات توازنا كاملا كالوالدات . فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن . . صفوة القول أن وجود الجنين ، الذى تختلف أنسجته اختلافا كبيرا عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ، ولأنها - جزئيا - من أنسجة زوجها ، تحدث أثرا كبيرا فى المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل

والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية . مع أن هـذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة . . ومن ثم فمن سخف الرأى أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ، ولا أن تبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم . . يجب أن يبذل المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى . كذا لوظائفها الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين . ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هـذه الاختلافات فى إنشـاء عالم متمدين »

(١١٦-١١٧)

« أليس من العجيب أن برامج تعليم البنـات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية ؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على الحمل فقط . بل أيضا على رعاية صغارها » . (٣٦٨-٣٦٩)

وأخيرا :

« من المعروف أن الإفراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى . ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته . . ولقد أكد فرويد ، عن حق ، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية فى وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فإن ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص . ومن ثم يجب ألا تعم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين ، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا ، وسيطرة على أنفسهم . . وبينما يصبح الضعفاء ، المعتلو الأعصـاب ، غـير المتزنين ، أكثر شذوذا عندما تـكبت شهواتهم الجنسيـة ، فإن الأقوياء

يصيرون أكثر قوة ، بممارسة هذا الشكل من الزهد [1] » . . . (١٧٤ ص)

* * *

ولنأخذ شهادة « ول ديورانت » الكاتب الأمريكي المتفلسف .. وهو رجل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذى تمثله هذه الحضارة فى مجموعها . وهو يبدو معارضا للدين فى جملته ، كما أنه ظاهر العداء للإسلام بصفة خاصة .. وقد نشرت له مؤسسة فرنكلين ترجمة جزء من كتابه « مباهج الفلسفة » ونشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه قصة الحضارة . ويستطيع قارئ اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بهذه الحضارة فى جملتها ، كما يلاحظ موقفه من الدين جملة ، وعداءه الظاهر للإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدى هذه الشهادة عن هذه الحضارة فى كتابه « مباهج الفلسفة » :

« وثقافتنا اليوم سطحية،ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض. وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى ؛ وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ؛ ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط ، نعنى : كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة

---

(١) هذا مايقوله عالم متخصص . أما جهلاء الصحفيين عندنا ، وكتاب القصص الجنسى ، ومجلات الإغراء الرخيص ، فتوحى كلها للشباب أن يفرغوا طاقتهم الجنسية ليحصلوا على الراحة والاستقرار !!!

أخرى ، حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هـذه النظرة الـكلية التى توحد الأغراض ، وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر فى لحظة مثاليتنا السامية ونلقى بأنفسنا فى هـذا الانتحار الجماعى للحرب . وعندنا مئة ألف سياسى ، وليس عندنا « رجل حكم » واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولـكننا لا نعرف إلى أين نذهب ، ولم نفـكر فى ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننـا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التى أسكرتنا بخمر القوة . ولن ننجو منها بغير الحـكمة » [1] ... (ص ٦-٧ ج ١)

« واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النـكاح كان يؤدى إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسؤولا عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية و بين التناسل ، وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة فى التغير نتيجة هـذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقى فى المستقبل أن يدخل فى حسابه هذه التسهيلات الجديدة التى جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة ! » ... (ص ١٢٥ ج ١)

« لحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولـكن النمو الجنسى يتم مبكرا

---

(١) يلاحظ هنا اعترافه بأن حرارة الإيمان الدينى قد أوجدت « اتزان العقل ، وأن هذا الاضطراب كله الذى يصفه إنما نشأ من تنحية الزواجر العلوية .. ومع هذا فهو يهاجم الدين جملة والإسلام صفة خاصة فى ثنايا كتابه ! وبماذا يريد أن يستبدل الدين ؟ بالفلسفة أو كما يسميها الحـكمة ! والأرض لم تخل من الفلسفة فى أى عصر ، ولـكنها لم تقم أبداً مقام الإيمان الدينى فى قيادة المجتمع إلى التوازن ، وإلى التسامى الحاق . كذلك يلاحظ تشبيهه المغرض للدين الذى شردوا عنه بالوثنية التى كانت قبـل سقراط ، والتى انهارت فأنشأت لعصر سقراط تلك المشكلة التى يتحدث عنهـا . فالتسوية بين الديانات السماوية والوثنية الإغريقية لا تعبر إلا عن الهوى .

عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى ، فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين. ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم ؛ وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة من الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا ، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى ، ولم يعد العالم المدنى يحكم به [1] » ... (ص ١٢٦–١٢٧)

« ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولا عنه. ولا فى أن بعض هـذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة. ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هـذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان [2] . وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر .

(١) يلاحظ ميله – وهو أمريكى – إلى اعتبار قواعد المذهب الماركسى فى التفسير الاقتصادى للتاريخ . وقد دفعه هروبه من الدين إلى هذا المأزق . فهو لا يريد أن يعترف أن شرودهم عن الدين هو الذى أدى بهم إلى هذه الفوضى .. إنما هو مجرد الانتقال من العهد الزراعى إلى العهد الصناعى !!!

(٢) هـذا فى الحقيقة هو السر . « فى عالم خلقه الإنسان » فى معزل عن الله وهداه ! وهـذا هو سبب البلاء .

غـير أنه من الخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحيـة ، وهى تعرض علينـا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ، وهم فى حمّى الفوضى الصناعية ، من حِمَى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر . ويجـد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا باحدث التحسينات ، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها » ... ص (١١٧ ـ ص ١٢٨)

« وأكبر الظن أن هـذا التجدد فى الإقبال على اللذة ، قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات ـ وقد أكسبهم المـال جرأة ـ أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل فى الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفا للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديما يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيـكون ذنبا ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة » . . . (ص ١٣٤)

« وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل فى هـذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليـد التعاون والسلام المتسكونين فى ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجنود الوحشية والإباحية . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فـكانوا

بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية [1] . و بعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى . وأصبحت الحكومات فى واد والشعب فى واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة . ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى [2] وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة » ... (ص ١٣٥ – ١٣٦)

« لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلابد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن الفرد فى الوقت الذى نما فيه الأمن الاجتماعى . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمناً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة ، مما يجعل الخطر جاثما كل لحظة . أما الشباب الذى أصبح أكثر إقداما وأشد غرورا من قبل ، فهو عاجز ماديا ، وجاهل اقتصاديا إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفا (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلىء

---

(١) يعترف هنا بسوء الأثر الذى أحدثه تحطيم الإيمان بالعناية الإلهية وانتزاع سند العقيدة الدينية من الضمير . بينما هو فى كتابه كله لا يستهدف غرضاً أظهر من تحطيم الإيمان بالعناية الإلهية وانتزاع سند العقيدة الدينية من الضمير ، والزراية على الإيمان بالغيب وعلى الزواجر العلوية !!!

(٢) يشير إلى وسائل منع الحمل والوقاية من الأمراض السرية . الأمران اللذان وفرتهما الحضارة !

الجيوب بما يكفى للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة ، فيحتفل الزواج بموت الحب .

« حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية . فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر مترددا ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا فى مستواها الحاضر من المعيشة ؟

« وأخيرا تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، و يعقد عليها لا فى كنيسة . لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثما على إيمانهما المهجور أثر فى قلبيهما . إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير الساسة) و يستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكا ، و يتوجهان إلى البيت فى صخب .

« إنه ليس بيتا ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التى يشعران بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا كأنهما فى زنزانة سجن ، فى

حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلا ، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئا روحيا كالبيت الذى كان يتخذ مظهرا ويكسب روحا قبل ذلك بعشرين عاما (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شىء مادى فيه من الجفاف والبرودة ماتجده فى مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع ، لا ينبت لهما الصيف الزرع النضر بل سيلا من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر ، بل المتاعب والذكريات الحزينة .

« وتصاب المرأة بخيبة أمل . فهى لا تجد فى هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هـذا البيت ، يعزى شعورُه ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هـذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبها عاديا تلك العلاقات غـير البريئة التى كان يعقـدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد فى هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجـين تخصيص حجرة أخرى للأطفـال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب ... فيعتزمان منع النسل ... إلى أن يقع بينهما الطلاق !

« ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح ـ لأنه صلة جنسية لارباط أبوة ـ

فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته » ... (ص ٢٢٣ ــ ٢٢٥) .

« ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء ، فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصودا . وسيزداد الزواج الحر ، مباحا كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة ، يضحى الحمل أمرا عارضاً فى حياة المرأة، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت . . وهذا كل شىء ![1] » . . (ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦)

***

(١) يلاحظ أن هذا كله قد تم فى أمريكا كما توقع الكاتب ، وأن هذا البلاء يزحف علينا زحفاً نكداً كئيباً .

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبى الأعلى المودودى فى بعض جوانب هـذه الحضارة ، وما أنشأته من آثار تنطوى على تهـديد مدمر للحيـاة الإنسانية ذاتهـا فضلا على الخصائص الإنسانية ·

من كتاب " الحجاب " :

« إن أساطين الفلسفة والأدب وأقطاب العلوم الطبيعية الذى رفعوا لواء الإصلاح فى القرن الثامن عشر ، كانوا ــ كما سبق لنا الإشارة إليه ـ يجابهون نظاما للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود ، وفيه صلابة من غير مرونة ، وعسر من غير يسر ، طافحا بالتقاليد التى لا يقبلها الطبع والضوابط الجامدة ، والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء فى كل طريق للرقى . فبجانب كانت النهضة العلمية والعقليـة الجديدة تبعث فى نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقـدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتى . وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء الدينيين تبالغ فى شدهم بالأغلال التقليدية . فمن الـكنيسة إلى الجندية والقضاء ، ومن قصور الإمارة إلى المزارع ودور التجارة .. كل شعبة من شعب الحياة ، وكل مؤسـسة للتنظيمات الاجتماعية ، كانت تجرى على نظام يتيح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازاتها القديمة وحقوقها المتوارثة ، أن تعسف وتجـور على من لا ينتمى إليها من العاملين الناهضين ، فتذهب بثمار أعمـالهم ، وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءاتهم . فـكل محاولة يقوم بهـا القائمون لإصـلاح تلك الحـال كانت تخيب وتفشل ، بإزاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها ..

« لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للإصلاح تثور فى نفوسهم مع الأيام

ثائرة الانقلاب الجامحة ، حتى غلبت عليهم وعمتهم ، آخر الأمر ، نزعات البغى والثورة فى هذا النظام الاجتماعى بجميع شعبه وأجزائه .. وراج بين الناس نظرية متطرفة فى الحرية الشخصية ، ترمى إلى إعطاء الفرد الحرية التامة ، والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع . فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق فى عمل ما يشاء ، والحرية الكاملة فى ترك ما يشاء ، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية .. الخ » . (ص ٦٠ ـ ٦١) .

« من غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكرى ـ وهو فى صدر شبابه ـ أسباب تمدنية أخرى . ففى هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة ، وأعقبتها تغيرات هامة فى الحياة الاقتصادية ، كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث إلى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها . وذلك أن تصور الحرية الشخصية ، الذى نشأ عليه النظام الرأسمالى ، جاءت الاختراعات الميكانيكية ، وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعى (Mass Production) تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى ، وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة ، أصبح يفجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلت تكاليف الحياة غلاء فاحشا ، وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة ، من المطعم والملبس والمسكن ، إلى ما فوق طاقة العامة ، زد على ذلك أن أضيف إلى حاجات الحياة مالا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها إلى ارتقاء التمدن وبعضها إلى مساعى أهل الثروة .

« ولكن النظام الرأسمالى لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات ، وأدوات الزينة والزخرفة التى أدخلها فى لوازم الحياة ، بل هو لم

يهيئ للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحيـاة الحقيقية ـ وهى السكنى والطعام واللباس ـ فى تلك المدن التى قد زج بهم إليها ..

« كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كَلاًّ على زوجها ، وأصبح الولد عبئا على أبيه ، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه ، فضلا عن أن يعول غيره من المتعلقين به . وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحـد من أفراد المجتمـع عاملا مكتسباً . فاضطرت جميع طبقات النساء ـ من الأبكار والأيامى والثيبات ـ أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويدا .

« ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين ، واحتكاك الذكور والإناث ، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية فى المجتمع ، تقدم هـذا التصور للحرية الشخصية ، وهـذه الفلسفة الجـديدة للأخلاق ، فهدّأ من قلق الآباء والبنـات ، والإخوة والأخوات ، والبعولة والزوجات ، وجعـلا نفوسهم المضطربة تطمئن إلى أن الذى هو واقع أمام أعينهم ، لا بأس به ، فلا يوجسوا منه خيفـة ، إذ ليس هبوطا وترديا ، بل هو نهضة وارتقاء (Emancipation) وليس فسادا خلقيا ، بل هو عين اللذة والمتعـة التى يجب أن يقتنيها المرء فى حياته ، وأن هذه الهاوية التى يدفع بهم إليها الرأسمالى ، ليست بهاوية النار ، بل هى جنة تجرى من تحتها الأنهار[1] .

« وما وقف الأمر عند هذا الحد . بل جاء النظام الرأسمالى الذى دفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية ، فمنح الفرد حقا مطلقا من كل قيد أو شرط فى اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق . وتبعته فلسفة الأخلاق فأباحت له كل وسيلة يمكن أن

---

(١) كأنما هذا الرجل الفاضل العميق النافذ يصف ما تقوم به صحافة وكتاب قصـة وأجهزة توجيهية كثيرة فى بلادنا ، فى دأب وإصرار . . إن بروتوكولات صهيون تقول : إنها ستقوم بهذا التدمير فى جميع الأمم ، لتسقط فى يد ملك صهيون فى النهاية !

تتخذ لجمع الأموال ، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين . . وبذلك تألف نظام التمدن ، من أوله إلى آخره ، على صورة تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة ، وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثرة الفرد . فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون . فعمد هؤلاء إلى الغرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل ، وراحوا يتفننون فى استغلالها لأغراضهم . فقام واحدهم ، وروج فى الناس سيئة الخمر جلبا للثروة إلى جيبه ، ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون . وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا ، ونصب شبكته فى القاصية والدانية ، وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هذا العلق ، بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة ، كى لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه . وجاء ثالث وأشاع في المجتمع طرقا مبتكرة للقمار ، حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره ، وما ثمة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة .

« وما كان من الممكن فى هذا العصر من الأنانية والبغى والعدوان الفردى ، أن يعزب عن إخوان الأثرة والطمع ، ذلك الضعف الإنسانى الأكبر . . الشهوة الجامحة . . التى يمكنهم باستثارتها جلب كثير من المنافع . فلم يفتهم ذلك فعلا ، بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة فى الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مدار العمل والعناية كلة فى المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام ، على أن تستخدم لها الغيد الحسان ، ويعرضن على المنصة فى صورة أكمل من التبرج ، وفى هيئة أقرب إلى العرى ، ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم . . جاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراه النساء ، وتقدموا بحرفة البغاء إلى أن أصبحت تجارة دولية منظمة .. وجاء

آخرون فتفننوا فى صنع أدوات الزينة والزخرفة ، ثم عمموها فى المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التى جبلت عليها المرأة إلى أن يجعلوها فيهن هوسا ؛ ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم . . وجاءت فئـة أخرى فاخترعوا لملابس النساء أزياء كاشفـة مغرية ، واستخدموا كل فاتنة الجمال لتلبسها وتغشى بها النوادى والحفلات ، حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها ، فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللبـاس ، وتربح تجارة مخترعيها . وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية ، والمقـالات الخليعة ، إلى استدرار الأموال ؛ وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجـذام الخلقى . حتى انتهت الحـال ، على مضى الأيام ، إلى أن لم تبق ناحية من نواحى التجارة خالصة من عنصر الإغراء. وها أنت ذا صرت لا ترى فى زمانك هـذا إعلانا من الإعلانات التجارية فى الجرائد والمجلات ، إلا وسمته الملازمة البارزة ؛ صورة امرأة عارية أو فى حكم العارية ، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافيا بالغرض بدون وجود المرأة[1] ، ولا تجد كذلك فندقا من الفنادق ولا مقهى ، ولا صالة عرض إلا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسى فى الرجال[2] .

« وكان المجتمع المسكين المخـذول لا يملك ـ حيال ذلك كله ـ إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه . وهى أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه، ويتحفظ من استيلاء غريزة الشهوة عليه . . ولـكن النظام الرأسمالى لم يكن من الضعف والهوان بحيث يمكن رد حملته بسهولة . وإنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداة، وعسكر

(١) أقرأ هذا ، وأقرأ صفحات « المرأة » فى صحافتنا كلها ، فأجد كأنما الرجل يصف ما عندنا ، لا ما هو واقع فى ذلك العالم الرأسمالى ! وأعود إلى « بروتوكولات صهيون » فأجد فيها النص على اتباع هذه الخطة . وأعلم ـ إذن ـ من أين تستقى صحافتنا مناهجها ؛ وما هى الخطة التى تنفـذها فى مجتمعنا ! ولحساب من تنفذ هذه الخطة !

(٢) تراجع الهامشة السابقة !!!

شيطانى عرمرم ، من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان يعملان عملهما فى نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس[1] .

« ومن براعة القاتل – والله – أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه » (ص ٨٢ – ٨٧) .

... « هذه حال المرأة عندهم . . وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابة من الجمال النسوى إلا شوقا وطموحا ونهمة . لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة فى الصدور ، لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيبا ، وتتطلب منظرا آخر أكثر منه سفورا وحسورا وتكشفا . ومثلهم فى ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم ، فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد شربا ازداد عطشا وظمأ . فهم دائما فى إعداد أدوات ، وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم ، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال ، ولا هم يستقر لهم قرار . وما هذه الصور العارية ، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية وهذه المراقص والمباذل ، والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة . . ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التى يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة – ولكن فى الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها – التى أججها هذا المجتمع الماجن ، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة ، فى صدر كل فرد من أفرادهم .. ولكنهم سموها بالفن (Art) لإخفاء هذا الضعف الكامن فى نفوسهم وفى حياتهم .

« ولا يزال هذا الداء الوبيل – من غلبة الشهوات البهيمية – ينخر فى كيان الأمم الغربية ، وينتقص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء فى

---

(٣) تراجع الهامشة فى الصفحة السابقة ١١١

مفاصل أمة ، إلا أوردها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل فى الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه فى هذه الحياة . وأنّى للناس ـ لعمر الله ـ ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة ، التى لابد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ، ما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرضة أبدا لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوى التحريض ، ويكون الدم فى عروقهم فى غليان مستمر بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع ، والصور العارية ، والأغانى الماجنة ، والأفلام الغرامية ، والرقص المثير ، والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوى العريان ، وفرص الاختلاط بالصنف المخالف . أستغفر الله ـ بل أنّى لهم ولأجيالهم الناشئة ـ أن يجدوا فى غمرة هذه المهيجات الجو الهادئ المعتدل الذى لا مندوحة عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية ، وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم . وإذاهم وقعوا بين ذراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه [1] ؟ » (ص ٣٧ـ٣٩)

« كان أكثر الأمم تأثرا بحركة منع التناسل هى فرنسا . فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالى (عند نشوب الحرب العالمية الأولى) ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما المقاطعات السبع والستون الباقية ، فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات فى بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ ٪ ١٧٠ بإزاء كل مئة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ، ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج

(١) راجع شهادة الدكتور كاريل السابقة فى ضرورة الكبت فترة ، ضمانا للنمو العقلى . على عكس ما يهتف به دعاة الإباحية والتحلل للشباب المسكين ؟ تنفيذا لبروتوكولات صهيون !

بين الموت والحياة ، أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ، ورجال محاربين ، وأنه إن ضحى – على الفرض – بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها فى سبيل الدفاع عن الوطن فى تلك الآونة ، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية . فكان من انبعاث هذا الشعور فى نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم ، وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء – وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة – كلهم يهيبون بالناس ، من كل جانب ، وبصوت واحد : أن يكثروا من التوليد والتناسل ، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج . ونادوا أن العذراء التى تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن ، تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة ! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزا قويا لدعاة الحرية والإباحية ؛ فانتهزوا الفرصة السانحة ، وبثوا جميع ما كان قد بقى فى جعبة فكرهم الشيطانى من النظريات » ... (ص ٧٢ – ٧٣) .

« إن أول ماقد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم ، اضمحلال قواهم الجسدية، وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ؛ وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم ، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب فى المتطوعة للجند الفرنسى ، على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل و يندر فى الأمة على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا – كدلالة مقياس الحرارة فى الصحة والتدقيق – على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة الفرنسية » [1] ... (ص ١١٣)

(١) ومثل هذه الظاهرة أخذت تتجلى فى الشباب الأمريكى . فقد أعلن رئيس الولايات المتحدة أن أكثر من مليون شاب أمريكى لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتجنيد . وعزا ذلك إلى ضعف بنية الشعب الأمريكى بصفة عامة ، نتيجة لحياة الترف التى انغمس فيها . .

« والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرها على التمدن الفرنسي طغيان الشهوة المطلقة ، ورواج الإباحية وقبولها : هي خراب النظام العائلي وتقوض بنيانه . . . »
(ص ١١٤)

« والأمة الفرنسية ـ كما أسلفت ـ لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاما متوالية . فني بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد وفى الأخرى تتساويان ؛ وفى الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جدا . وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين فى فرنسا ينمو ويكثر ، فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليونا من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١ . وإن استمرت الحال على ماهى عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقلية فى وطنها هى » . . .
(ص ١٣٢)

« ولا يحسبن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها فى هذا الباب. بل الأمر أن جميع الأمم التي قد آمنت بما ذكر آنفا من نظريات الأخلاق ومبادئ الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاريها فى تلك الحال » ... (ص ١٢٣)

« نشر فى جريدة (Free Press) بدوترويت (Detroit) الأمريكية مقال جاء فيه :

« إن ما قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غير المشروعة ـ الدائمة والعارضة ـ بين الرجال والنساء ، يدل كله على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية . فالرغبة الطبيعية فى النسل إلى التلاشى ، والجيل المولود حبله على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازما لبقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتفى

من النفوس . و بخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدنية والحكومة وعدم النصح لها » ... (ص ١٣٧)

« كل هـذا الاتباع لأهواء النفس ، والنفور من تبعات الزوجية ، والتبرم بالحياة العائلية ، والارتخاء فى الروابط الزوجية ، يـكاد يذهب فى المرأة عاطفة الأمومة الفطرية ، التى هى أشرف العواطف الروحيـة وأسماها فى النساء ؛ والتى لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب ، بل بقاء الإنسانية جمعاء . وما نجمت سيئات منع الحمل و إسقاط الجنين ، وقتل الأولاد ، إلا بنضوب هذه العاطفة فى نفس المرأة . فالمعلومات عن تدابير منع الحمل موفورة لـكل فتى وفتاة فى الولايات المتحـدة الأمريكية على الرغم من قيود القانون . والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع فى الحوانيت كالسلعة المباحة ، تستصحبها دائما بنات المدارس والـكليات ــ بله عامة النساء ــ لـكى لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ، إن نسى خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيـكتب القاضى « لندسى » (فى محكمة دنفر) :

« ٤٩٥ بنتا فى السن البا كرة من بنات المعاهد الثانوية اعـترفن لى بأنهن كن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان ، إلا أنه لم تحمـل منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات فسلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق . ولـكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمـل . وهـذه الخبرة قد عمت فيهن إلى حد لا يـكاد الناس يصيبون فى تقديره [1] » ... (ص ١٣٩)

---

(١) كتب القاضى هذا الـكلام فى سنة ١٩٢٢ . . وهذه الحالة تعتبر رجعية ! فالتقـدم لا يتوقف ! ولعل هـذا ما تريده بعض صحافتنا ، وتعتبره رسالة لها ولـكنها ليست رسالة لحساب هذا البلد . وإنما لحساب صهيون ، وبروتوكولات صهيون ! . . إن واحدة من هـذه الصحف تحدثت عن عدم كفاية الجيش التركى لأن طائفة « الدونما » الصهيونية قد أشاعت فيه الانحلال . فأصبح الضابط التركى يصلح =

« وقد ذكرت فى مجلة أمريكية هذه الأسباب التى لا تزال تؤدى إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك ، بالكلمات الآتية :

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض : أولها الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة . . والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تلقنهم دروسا عملية فى بابه . . والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء الذى يظهر فى ملابسهن بل فى عريهن ، وفى إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلاقيد ولا التزام .. هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام . ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فإن نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاغل ورقص وغناء » . . . (ص ١٢٩) .

***

والآن نستمع إلى شهادة الطبيبة التى تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » بعنوان « جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور » من مشاهداتها فى « ڤينا » :

= لكل شىء إلا للقتال بعد ما ضيعته الصهيونية وعلمته التسكع فى شارع أتاتورك لمغازلة الفتيات ! فما الذى تصنعه هذه الصحف فى شعوبنا ؟ وهل تصنع إلا ما صنعته الدونما فى تركيا ؟ لذلك يحق لنا أن نسأل : لحساب من تعمل وتنشر فى شبابنا التميع والفساد ؟

« ... شاءت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد ، لزيارة صديقة لى طبيبة بإحدى ضواحى « ڤينا » ـ بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية فى دار الكتب ـ وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبى ، حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجلة ، وفى يدها « بطاطس » تقشره . ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك .

« ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتنى قائلة :

« ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة فى المطبخ ، يوم الأحد !

« قلت ضاحكة :

« أما العمل يوم الأحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا مالم أنتظره .

« فردت :

« لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل فى عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتى الوحيدة لكى أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالى بالمطبخ، فلعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

« ولما سألتها عن سر هذا القلق ـ مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية ـ أجابت بأن ذلك القلق ، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة ، وذلك لما لحظوا من تغير بطىء فى كيانها ، لم يثر

الانتباه أول الأمر ، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختيارى محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار ، بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضوى ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى — عن قصد أو غير قصد — عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبثها بمساواة الرجل ، ومشاركته فى ميدان عمله .

« واستند علماء الأحياء فى هذا الفرض — نظريا — إلى قانون طبيعى معروف ، وهو أن « الوظيفة تخلق العضو » ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هى التى خلقت فى حواء خصائص مميزة للأنوثة ، لا بد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه « عالم الرجل » .

« ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظرا ، وإذا بهم يعلنون — فى اطمئنان مقرون بشىء من التحفظ — عن قرب ظهور « جنس ثالث » تضمر فيه خصائص الأنوثة التى رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

« وثارت اعتراضات . . منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمى حقها فى العمل ، ويتيح لها بحكم القانون ، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج

من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلـغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

« وكان الرد على هـذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائما الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا فى حدود ضيقة ، وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليـه بأن هـذا الخروج ـ على قرب العهد به ـ قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل ببوادر التغيير ، لعمق تأثير فـكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها فى ضميرها .

« وما يزال المهتمون بهذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ، ويستقرئون فى اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن ، وضمور الأعضـاء المخصصة لوظيفـة الأمومة » . . . (جريدة الأهرام) .

***

من مقال إخبارى فى أخبار اليوم (من استوكهلم) لموسى صبرى :

« قال لى أستاذ جامعى سويدى :

« إننـا نعلم أبناءنا وبناتنا فى المدارس الثانوية ، وفى سن مبكرة ، كل شىء عن الجنس ، واضحا صريحا . ليست لدينا مشـكلة جنس [1] . إن المتعة الجنسية كمتعة الطعام

---

(١) سنرى بعد قليل فى المقال نفسه مدى صحة هذه الدعوى !

اللذيذ ، ومتعة الملابس الأنيقة ، والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج هى شىء طبيعى عادى . وما يباح للشاب يجب أن يباح للفتاة !

. . . « وخلاصة القول أن « حرية الحب » فى السويد تعنى أن نداء الجنس هو نداء طبيعى ، كنداء البطن ، ونداء العقل .. ليس فيه مايدعو إلى كبته ، أو شدة كتمانه .. ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة ــ وقد فوجئت وأنا أتروض فى حدائق « سكانسن » ذات صباح مشمس ، بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون فى الماء عرايا ، كما ولدتهم أمهاتهم ، وهم مابين سن الثامنة والحادية عشرة .. وتبددت المفاجأة تماما ، عندما عرفت أن الكبار أيضا من النساء والرجال ، ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطىء ، وهم عرايا تماما .. ليس هذا هو أسلوبهم فى التصييف ، فهناك من يرتدى المايوه . ولكن نزول « شلة » من الجنسين إلى البحر ــ وهم عرايا ــ أمر لا يلفت النظر ، ولا يدير أى رأس !

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أما بغير زواج ؟

« والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة برعاية الطفل وحضانته وتعليمه بالمجان ، حتى سن السادسة عشرة . . وهو يقيد فى سجل المواليد باسم أمه . أو باسم الأب ــ إذا اعترف به ــ والمجتمع لا يعطى الابن غير الشرعى ، أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام !

« وهنا نتساءل ــ فى جد وخطورة :

« إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم ، فهل نستطيع أن نتصور ، أننا ــ وباقى الدول ــ سننجرف إلى هذا المصير ، إن عاجلا أو آجلا [1] ؟

---

(١) نحن ننجرف فعلا ، وبسرعة مخيفة ، إلى هـذا المصير بفضل أجهزة التدمير المسلطة على أخلاق شعوبنا ومقوماتها !

« وتأكيد تقدم السويد ــ كأرقى دول العالم ــ أمر تؤيده الإحصاءات ، وتعترف به كل الأبحاث العلمية .

« إن مايخص الفرد الواحد فى السويد من الدخل القومى يساوى ٥٢١ جنيها مصريا فى العام . أى حوالى ٤٣ جنيها فى الشهر الواحد .

«ووصل نظام الحكم الاشتراكى فى السويد إلى مايقارب محو الفروق تماما بين الطبقات، بفرض الضرائب التصاعدية ، وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية ، التى لا تجدها فى دول أخرى .

« كل مواطن سويدى يستحق معاشا ، وإعانة مرض ، ومعاش عدم صلاحية ، وإعانة غلاء معيشة وإعانة للسكن ، وإعانة للعمى .

« كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحى ، وإعانات المرض التى تصرف نقدا ، والعلاج المجانى فى المستشفيات .

« تدفع إعانة أمومة لكل النساء . تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية فى المستشفى ، وإعانة إضافية لكل مولود .

« التأمين ضد إصابات العمل إجبارى .

« شروط الإعانات فى حالة البطالة هى أسخى شروط معروفة دوليا .

« تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال . منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيها فى العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للأجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة . مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم .

« التعليم فى جميع مراحله بالمجان ، مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشية لغير القادرين ، وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيها للطلبة المجتهدين .

« تقدم الدولة قروضا لتأثيث منازل العرسان تصل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات .

« إن ثلث الضرائب التى يدفعها الشعب السويدى تنفقها الدولة فى التأمينات الاجتماعية وتدفع الدولة ٨٠ ٪ منها فى مساعدات نقدية . إن أضخم ميزانية هى ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية التى وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه . ثم تليها ميزانية وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه . بينما تنزل ميزانية القصر الملكى إلى حوالى ٤٠٠ ألف جنيه فقط .

« مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار فى الحياة وتكوين أسرة ، فإن الخط البيانى لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض .. مع وجود الدولة التى تتكفل للفتاة إعانة زواج ، ثم تتكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج فى الجامعة .. فإن الأسرة السويدية فى الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق ..

« يقابل هذا :

« انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين ..

« وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ..

« مع ملاحظة أن ٢٠ ٪ من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا .

« لقد بدأ عهد التصنيع ، وبدأ معه المجتمع الاشتراكى فى السويد عام ١٨٧٠ . كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات فى ذلك العام ٧٪ وارتفعت هذه النسبة فى عام ١٩٢٠ إلى ١٦٪ والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة فى الزيادة !

« إن نسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم كله . إن طلاقا واحدا يحدث

بين كل ست أو سبع زيجات ـ طبقا للإحصاءات التى أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد ـ والنسبة بدأت صغيرة ، وهى مستمرة فى الزيادة . . فى عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هـذا الرقم إلى ١٠٤ فى عام ١٩٥٢ . ثم ارتفع إلى ١١٤ فى عام ١٩٥٤ .

« سبب ذلك أن ٣٠٪ من الزيجـات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة ، والزواج بحكم « الضرورة » لا يدوم بطبيعة الحال . ويشجع على الطلاق أن القانون فى السويد لا يضع أية عقبة أمام الطلاق ، إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جدا . وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أى سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق .

« وإذا كانت « حرية الحب » مكفولة فى السويد . . فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد .. إنها « حرية عدم الإيمان بالله » ! لقد انتشرت فى السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق . وهـذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضا . فالمدرسون فى المدارس والمعاهد يدافعون عن هـذه الحرية ، ويبثونها فى عقول النشء والشباب .. إن الكنائس موجودة فى كل مكان ، ولكنهـا أقرب إلى التحف الأثرية . والدولة تصرف على الكنائس ، وتدفع مرتبات القسس . ولكن الكنائس لا تفتح أبوابها إلا صباح الأحد لبضع ساعات ، ولا يؤمها إلا عدد محدود جدا من العجائز ـ أمثـال جدتى وجدتك ـ والنكتة التى تسمعها منهم : أنهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات فى الأسبوع . وأنها من حقها بعـد ذلك أن تأخذ إجازة .. لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة إلى إشباع حاجات النوع الإنسانى !

« وهــذه ظاهرة جديدة تهدد الجيــل الجديد فى السويد وباقى دول اسكندنافيا .

إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف ، وإلى الإدمان على المخدرات والخمور .

... « وقد قدر عدد أطفال العائلات التى لهــا أب مدمن بحوالى ١٧٥ ألفــا . أى ما يوازى ١٠٪ من مجموع أطفــال العائلات كلهــا .. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف . . إن من قبض عليهم البوليس السويدى فى حالة سكر شديد من المراهقين ، بين سن ١٥،١٧ ، يوازى ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما . وعادة الشراب بين المراهقين والمراهقات تسير من سىء إلى أسوأ .. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة .

« إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ فى السويد يتعرضون لاضطرابات عقليــة ، تلازم أمراضهم الجسدية . ولا شك أن التمادى فى التمتع بحرية عدم الإيمــان ، سيضاعف هــذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعى تفــكك الأسرة ، ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ..

« قال لى صحفى نرويجى :

« إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان ..

« قلت له :

« وماذا تفعل حكومتــكم لدرء هذا الخطر ؟

« أجاب متألما :

« إن حكومتنا أيضا ليست مؤمنة » ... (أخبار اليوم)

* * *

وبدون أى تعليق أو تعقيب ، نغلق هــذا الفصل ، على هذه النــذر الرهيبة . فهى

ناطقة بذاتها . إن الذين يخالفون عن قانون الفطرة ، لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب .. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض ، ورخاء العيش ، ومضاعفة الدخل ، والضمانات المادية الخيالية . فللحياة الإنسانيةقوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل ولا تتخلف ، ولا تلين ...

هذه القوانين هي التي يقول عنها الدكتور ألكسيس كاريل :

« إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ، وهي قوانين أكثر غموضا ــ و إن كانت تتساوى في الصلابة ــ مع القوانين الدنيوية. كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم » .

ولقد حذر الله ــ سبحانه ــ عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين . وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه ، المتمشي مع سنته في الكون ، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة :

« فلما نسوا ما ذكّروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذاهم مبلسون . فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »...
(الأنعام ٤٤ـ٤٥)

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا ، كأن لم تَغْنَ بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ... (يونس : ٢٤)

وصدق الله العظيم ..

كيف الخلاص ؟

والآن . . ماذا يا ترى يكون حكمنا على هذه الحضارة الصناعية ؟

ماذا بعد هـذه الشهادات الدالة على بشاعة الجريمـة ، وعلى الخطر الداهم على « الإنسانية » ؟ على وجودها ذاته بالميل إلى الانقراض فى الدول التى بلغت قمة الحضارة ؟ وعلى خصائصها الثمينة بالميل إلى الجنون والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والإجرام ، وهبوط مستوى الذكاء ، وضعف العقـل والاحتمال الجسدى والعصبى والنفسى فى هذه الدول .. إلى آخر قائمة الاتهام الرهيبة ؟!

ترى نصدر حكمنا بالإعدام ؟ وهو الحـكم الذى يبدو متكافئا مع ظروف الجريمة ؟ !

إن الدكتور « كاريل » يقول : إنه كتب كتابه هذا : « الإنسان ذلك المجهول ».. « لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجـاعة كافية ليدركوا ـ ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية بل أيضا ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فـكرة أخرى للتقدم البشرى » ..

وسنعرف فيما بعد ما هى الفـكرة الأخرى التى يقترحها ..

أما نحن فسنبادر بالقول بأن حكم « الإعدام » لهذه الحضارة ، ليس هو أنسب الحلول التى تملـكها البشرية ..

إننا أولا لا نملك إصدار حكم بالإعدام على الحضارة الصناعية . فهى نتاج طبيعى ، له مكانه فى تاريخ الحياة البشرية ، ولم يهبط عليها من عالم آخر ، ولا جاء مصادفة ،

ولا نبت سدى . . ومن ثم فهذه الحضارة عميقة الجذور ، أصيلة الوجود ، وجدت لتلبية حاجة طبيعية للبشرية فى موعدها التاريخى المناسب كذلك . . ومن ثم لا تكون قابلة للإعدام ، لو اخترنا أن نصدر عليها هذا الحكم ، لفظاعة الجرائم التى ارتكبتها فى حق الإنسان !!!

وعلى فرض أننا نملك تنفيذ حكم كهذا .. أو على فرض أن « تتارا » جددا قد انبعثوا فى هذه الأرض يحطمون حضارتها ـ كما حطموا حضارة بغداد ـ ويلقون بكتب هذه الحضارة فى أنهار الرين والراين والسين والتيمس والبوتوموك ... أو أن حفنة من مجانين البشر الذين يملكون القنبلة الذرية والقنبلة الأيدروجينية والصواريخ وما إليها ، قد أصابتهم (النوبة) ! فى لحظة فأطلقوا الدمار على مراكز هذه الحضارة !

على أى فرض من هذه الفروض ، فإن تحطيم هذه الحضارة ـ على هذا النحو ـ يبدو لنا ـ من خلال نظرتنا البشرية المحدودة ، التى لا تعلم حقيقة الخير والشر ، ولا تعرف شيئا عن مآلات الأفعال ـ أنه ليس فى صالح البشرية . . وفى حدود هذه النظرة لا نملك أن نصدر حكم الإعدام على هذه الحضارة على الرغم من جرائمها البشعة ضد العنصر الإنسانى !

إذن .. كيف الخلاص ؟

* * *

الدكتور ألكسيس كاريل يرى أن طريق الخلاص هو :

« مزيد من علوم الإنسان . يمكننا من إعادة إنشاء الإنسان » .

« يجب أن يكون « الإنسان » مقياسا لكل شىء . . ولكن الواقع هو عكس

ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة ، الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها . . وحقيقة الأمر أن مدنيتنا ، مثل المدنيات التى سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة . . إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد .

« إن العلاج الوحيد الممكن لهذا الشر المستطير هو : معرفة أكثر عمقا بأنفسنا . . فمثل هذه المعرفة ستمكننا من أن نفهم ما هى العمليات الميكانيكية التى تؤثر بها الحياة العصرية على وجداننا وجسمنا .. وهكذا سوف نتعلم كيف نكيف أنفسنا بالنسبة للظروف المحيطة بنا ، وكيف نغيرها ، إذ لم يعد هناك مفر من إحداث ثورة فيها . . ولئن استطاع هذا العلم أن يلقى ضوءا على طبيعتنا الحقة ، وإمكانياتنا ، والطريقة التى تمكننا من تحقيق هذه الإمكانيات ، فإنه سيمدنا بالإيضاح الصحيح لما يطرأ علينا من ضعف فسيولوجى ، كذا لأمراضنا الأدبية والعقلية . . إننا لا نملك وسيلة أخرى لمعرفة القواعد ــ التى

لا تلين ــ لوجوه نشاطنا العضوى والروحى ، وتمييز ما هو محرم مما هو شرعى ، وإدراك

أننا لسنا أحرارا لنعدل فى بيئتنا وفى أنفسنا تبعا لأهوائنا . . وما دامت الأحوال الطبيعية للحياة قد حطمتها المدنية العصرية ، فقد أصبح علم الإنسان أكثر العلوم ضرورة » (ص ٤٣ ـ ٤٥) .

٭٭٭

ونحن نهتف مع الدكتور كاريل : « مزيدا من علوم الإنسان » . . ولكننا لا نرى ـ معه ـ أن هذا ـ وحده ـ يكفى . ولا نثق مثله هذه الثقة المطلقة فى ما قد نصل إليه من المزيد فى علوم الإنسان . ولا نقف ـ مثله ـ يائسين من « وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التى لا تلين لوجوه نشاطنا العضوى والروحى ، وتمييز ما هو محرم ، مما هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحرارا لنعدل فى بيئتنا وفى أنفسنا تبعا لأهوائنا » . .

إن المزيد من علوم الإنسان ضرورى لنا . . لنعرف منه ـ على الأقل ـ أقصى الإمكانيات التى فى طوقنا ، وطوق العلم ، أن نبلغها من المعرفة « بالإنسان » . ونقف على حدود المجهول الذى لاحيلة لنا وراءه . فهذه المعرفة ضرورية لنحدد ـ على ضوئها ـ ماالذى نملك وما الذى لا نملك من التصرف فى شأن « الإنسان » لعلنا نلتزم حدودنا ولا نتعداها ، ولا نخبط وراءها فى التيه بلا دليل ، كما فعلنا حتى اليوم ، بلا مبالاة .

والدكتور كاريل كان قد سبق فقرر لنا أن هنالك أسبابا لتخلف علوم الحياة عن علوم الجماد ـ ليست طارئة ولا وقتية ـ إنما هى ثابتة وطبيعية . . أسبابا ترجع إلى تعقد الحياة من جهة ، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى . ومن ثم قرر لنا أن علوم الحياة لن تبلغ ـ فى يوم من الأيام ـ ما بلغته علوم الجماد من الدقة والجمال . . وبالضبط قال لنا بألفاظه :

« إن معرفة أنفسنا لن تصل أبدا إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ،

والجمال التى بلغها علم المـادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التى أخرت تقدم علم الإنسان » ... (ص ٢٣)

فمن العجيب ـ بعد ذلك ـ أن يجعل اعتماده كله ، فى حل مشكلة الحضارة ، وإعادة إنشاء الإنسان ، على « مزيد من علوم الإنسان » .

ولكننا لكى نزيل هذا العجب ، يجب أن نواجه مشكلة دكتور كاريل نفسه . فإن مواجهتها تفيدنا فى تعيين الجهة التى يمكن أن يأتى منها الخلاص الحقيقى ، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص ..

إن هذا الرجل الواسع المعرفة ، العميق الحساسية ، الشديد الإخلاص ، المتحرر الفكر ، الثائر على الحضارة الصناعية ، حتى ليرى أن ليس هناك ما هو أقل من « قلب الحضارة الصناعيـة وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى » ..

إن هذا الرجل ـ على كل هذه الفضائل والخصائص فيه ـ رجل « غربى » نشأ فى البيئة الغربية ، بكل ملابسات تاريخها القديم وحاضرها الراهن . كما أنه نشأ فى ظل هذه الحضارة ، وفى بيئة « العلم » الذى هو طابعها الظاهر ..

وبسبب كل هـذه الملابسات فهو . . سجين هـذه الحضارة . . سجين بيئتها وتاريخهـا وملابسـات حياتهـا . . سجين الانطبـاعات والرواسب العميقة العتيقـة فى هذه البيئة ..

ومن ثم لا يملك ـ حين يثب الوثبة الكبرى ـ أن يخرج من إطارها ..

ونزيد هذه الحقيقة العجيبة إيضاحا :

إن الدكتور كاريل يتنفس فى بيئة آمنت بالعلم التجريبى إيمانا مطلقا فترة قرنين من

الزمان .. وعلى الرغم من أنها بدأت فى هذا القرن الأخير تفيق من نشوة انتصار العلم ،وهى تراه يقف على عتبات المجهول عنـد آفاق كثيرة . فإن رواسب القرنين الماضيين لا تزال عميقة وعنيفة .. حتى عند الذين عرفوا « حدود العلم » ..

وهو فى الوقت ذاته يتنفس فى بيئة عرفت الدين ـ فى أحسن صوره ـ تصوفا روحيا مرفرفا شفيفا ، واتصالا بالغيب من غير وساطة مادية ظاهرة ، وصلاة ودعاء يغيب فيها الفرد عن ذاته ، ويندمج فى الملأ الأعلى .

وهـذه هى الصورة الوضيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور العالم الشاعر المتصوف المرفرف ، كما يصفها فى كتابه هذا ، وكتابه الآخر الذى عنوانه « الصلاة » .. وكما يـكرر ضرورة توفير الجو المناسب لانطلاقها فى حياة البشر . . وكما يثور على الحضـارة المادية الصناعية ، لأنهـا تخنقهـا ، وتخنق معها كل شعور بالجمال ، وكل نشاط فنى أو روحى أو دينى . .

ومن هاتين النقطتين : نقطة الإيمان بالعلم ، ونقطة تصور الدين على هـذا النحو وفى هـذه الحدود . . تنشأ مشـكلة الدكتور كاريل ، وأمثاله ممن تهولهم فظاعة التدمير الذى تنشئه هذه الحضارة فى حياة الإنسان « وروحه » ، وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان . .

تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحضارة ومن « سجنه » فى إطار هذه الحضارة فى الوقت ذاته .

ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذى تنشئه هذه الحضارة فى الـكيان الإنسانى ..

إنه لايملك منهجا للحياة إلا الذى يقرره العلم . . لأن الدين ـ كما هو فى بيئته ـ فى

أحسن صوره ، لافى الصورة الـكريهة المنفرة الأخرى - هو مجرد نشاط روحى ، وتهذيب خلقى ، واتصال بالعوالم الغيبية ..

وهو فى صورته هـذه يمثل جانبا واحدا من جوانب التـكوين الإنسانى . فالاقتصار عليه شديد الخطورة ، لأنه معوق للنشاط الواقعى العملى الإيجابى - المادى - وهو يحذر أشد التحذير من أن يكون الهروب من الحضارة إلى مثل هذا العالم الذى لا يحوى إلا النشاط الروحى . . وهو محق تماما فى تحذيره هذا . إذ كان لا ينشئ إلا نـكسة إلى « الرهبنة » التى ذاقت منها أوربا ماذاقت فى تاريخها ، والتى انتهت - كما أسلفنا - إلى الجموح المادى الـكافر الغليظ الجافى .

فأما لو فـكر فى أن يـكون للحياة منهج دينى واقعى . . فإن صورة كريهة مفزعة تخايل له . لأنها الصورة التى عرفتها كذلك أوربا . . صورة الـكنيسة الطاغية التى تفرض تصوراتهـا الخرافية على العلم والعلماء وعلى الحيـاة والأحيـاء . . وهى صورة كذلك أمرّ وأدهى ..

لا مفر إذن - لأمثال هؤلاء المخلصين المساكين - إلا أن يلجأوا إلى « العلم » وإلى العلم وحده . حتى فيما يحسون هم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى نتائج حاسمة قاطعة كالتى وصل إليها فى عالم المادة ..

ولـكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملـكون للبشرية غير هذا ؟

* * *

ولـكننا نحن نملك ...

نحن - أصحاب المنهج الإسلامى للحياة - نملك للبشرية مالا يملـكه أحد آخر على

ظهر هذا الكوكب .. ونملك أن ننقذ دكتور كاريل نفسه من حيرته هذه ؛ وأن نستجيب لصراخه المخلص العميق الحاد !!!

ونحن ـ أصحاب المنهج الإسلامى للحياة ـ ندرك من دراستنا لموقف الدكتور كاريل الذى يستحق العطف والرثاء أننا ـ وحدنا ـ مكلفون أن نتقدم لحمل العبء ، ولندل البشرية على طريق الخلاص ، ولننشئ هـذا الطريق أيضا ..

نحن نملك منهجا للحياة ، لا يعادى العلم مطلقا ؛ ويرحب بمزيد من علوم الإنسان على وجه الخصوص .. ولكنه فى الوقت ذاته لا يكل لهذا العلم ـ وحده ـ بناء الحياة الإنسانية ، إنما يضع الإطار العام الذى يعمل فيه العلم ، ويعمل فيـه العقل ، فى دائرة مأمونة ..

هذا الإطار من صنع الذى « يعلم » حق « العلم » حقيقة هـذا الإنسان ، وفطرته ، وطاقاته ، وحاجاته الحقيقية . فلا تخفى عليـه من الإنسان خافية ! ولا يضع أمام عشرات المسائل ومئاتها فى حياة الإنسان وتركيبه علامة استفهام واحدة ؟!

وهو إطار واسع جدا ، شامل للإنسان كله . تدور الحياة البشرية فى داخله على محور ثابت . فتتحرك دائما حول هذا المحور ، وداخل هذا الإطار ، حركة نامية متجددة ، وهى فى الوقت ذاته آمنة سالمة .

ومنهجنا هذا لا يجعل الدين مجرد ذلك النشاط الروحى الذى لا يعرف دكتور كاريل صورة غيره للدين .. إنما هو يجعل الدين بوتقة الحياة كلها .. تصهر فيه ، ثم تشكل فى جميع صورها وألوانها ، كما يجعله هو الإطار الذى تزاول الحياة كل نشاطها فى داخله . وهو المحور الذى تشد الحياة كلها إليه . والعقل والعلم والصناعة والاقتصاد والسياسة والصلاة والدعاء

والاتصال بالملأ الأعلى ظواهر لهذا النشاط حول هـذا المحور وداخل هـذا الإطار . . إن منهجنا يفهم « الدين » على أنه هو منهج الحياة الإنسانية بكل مقوّماتها . . المنهج الذى وضعه الله ، وارتضى أن تسير وفقه الحياة .

ومن ثم نجد طريقا للخلاص . يحتوى ـ فى بعض مراحله ـ طريق الدكتور كاريل ، بلا تعارض ولا تخاصم ولا شقاق .

* * *

إن منهجنا يبدأ من نقطة سابقة جدا على النقطة التى يبدأ منها دكتور كاريل ، والكثيرون غيره من المخلصين الغربيين ، الذين لاينقصهم الإخلاص ، ولا تنقصهم الخبرة ، ولا تنقصهم الرغبة فى تدارك البشرية من الهاوية التى تنحدر إليها . ولكنهم مع هـذا « سجناء » بيئتهم وحضارتهم .. أبعد خطاهم وثبة فى داخل القفص .. لا تتعداه إلى منهج مبتكر من أصوله . لأنهم لا صلة لهم بهـذا المنهج من الناحية التاريخية ولا من الناحية الشعورية ـ على فرض معرفتهم به من الناحية العلمية ـ إذ المعول فى مثل هذه المواقف الفاصلة على رواسب التاريخ وكوامن الشعور ..

منهجنا يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان فى هذا الوجود . وتعيين مكانه ودوره ، ووظيفته وحقوقه وواجباته ..

إنه ليس إلٰها ينازع « الآلهة » ! وتنازعه . وليس كذلك حيوانا جاءت سيادته على الأرض مصادفة ، وقد يقوم مقامه فى هذه السيادة غدا قط أو فأر ! وليس آلة تحسب قيمته بقوة « الأحصنة » التى يساويها فى قوة التحريك والإدارة . وليس عبدا للمادة ، ولا هو لوحة تطبع فيها المادة (أو الطبيعة) ما تريد . وليس عبدا للآلة ، تصرف حياته

وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي وتتقلب . وليس « نمرة » ولا مجموعة « نمر » تتحرك داخل القطيع ، بلا شخصية مميزة ، ولا كيان « فردى خاص » .

وليست المرأة أحبولة للشيطان ، وليس اتصال الجنسين رجسا من عمل الشيطان . وليست اللذة والمتعة هي غاية هذا الاتصال ، ولا الهوى دافعه ومانعه على السواء . وليس الجنسان سواء في وظيفتهما وعملهما ؛ وليس مجرد التفرقة بينهما في التكوين البيولوجي عبثاً لا معنى له ولا هدف وراءه .. إلى آخر ماسرت به الفطرة إلى « الإنسان » من تخبط واضطراب ..

كلا .. إنما الإنسان .. إنسان .. « إنسان » وليس إلٰها ــ هو سيد هذه الأرض وهو عبد لله في آن .. وهو مسلط على هذه الأرض ، ومسخر له كل مافيها ، وعليه أن يخلف الله ــ سبحانه ــ فيها ، ويغير فيها ويبدل ، وينمى فيها ويرقى ، وهو مُعانٌ على استغلال كنوزها وطاقاتها . معانٌ بما وهبه الله من قوى وطاقات ، ومعانٌ بما في نواميس هــذا الكون من عون للإنسان في هذا المجال .. وفي الوقت ذاته هو من نفسه في حرم مقدس . حرم من حرمات الله . لا يمسه إلا بإذن الله ، ولا يعمل فيه إلا بمنهج الله . ولم يوهب معرفة أسرار هذا الحرم ــ إلا بقدر ــ ولم يسمح له أن يضع له من تلقاء نفسه المناهج والخطط والشرائع والأوضاع . ولم يؤذن له أن يتخذ إلٰهه هواه ..

وهو « إنسان » ــ وليس حيوانا ــ هو مخلوق فذ في هذا الكون . مخلوق قصدا ، ولخلقته حكمة . ومزود بطبيعة خاصة ــ فوق طبائع الحيوان ــ وبخصائص معينــة ــ فوق خصائص الحيوان ــ لأداء وظيفة معينة في الأرض لا يؤديها الحيوان . وله ــ من ثم ــ مقام كريم ، يعادل وظيفته الكريمة .. كان كذلك يوم نشأ ، وهو كذلك اليوم ، وسيكون كذلك غدا .. والذين خالفوا عن هذه الحقيقة يعودون إليها مرغمين الآن ..

وهو « إنسان » - وليس آلة ، ولا عبدا للآلة . ولا من صنع المادة ، ولا من صنع الآلات - وهو كائن معقد شديد التعقيد ، ليست له بساطة المادة ولا طواعية الآلة . والذى نعلمه عن تعقيده قليل - ونحن فى أول الطريق من علوم الإنسان ، ولم نصل بعد إلى المزيد من علوم الإنسان الذى يتطلبه دكتور كاريل - ومع ذلك فقد واجهتنا « الحياة » بتعقيدها المخيف الذى لم تواجهنا به المادة ، وواجهنا « الإنسان » بتعقيد أشد هولا ..

فمن الجرأة المتهورة المتهجمة على « العلم » وقواعده ، الزعم بأن هذا الإنسان مادة ، والتعامل معه كالتعامل مع المادة .. ومن التخبط أن نزعم أنه كالآلة ونعامله كما نعامل الآلة.. ثم من التوقح البغيض أن نقول : إن الآلة (أداة الإنتاج) هى الإله الذى يغير فيه و يبدل كما يشاء ! ! !

وهو « إنسان » - وليس « نمرة » من النمر ولا فردا من القطيع - هو إنسان يتميز أفراده بعضهم من بعض ، و يتمتع كل فرد بذاتية مستقلة لا نظير لها ، ووحدانية حقيقية - رغم اشتراكهم جميعا فى خصائص إنسانية عامة - ولكل فرد منهم « خصائصه الذاتية » إلى جانب « الخصائص الإنسانية » . . ومن ثم ينبغى أن يكون النظام الاجتماعى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام السياسى . والطريقة الفنية للعمل فى المصانع وغيرها (التكنولوجيا) مبنية على أساس ملاحظة « الخصائص الإنسانية » العامة أولا . و « الخصائص الفردية الذاتية » ثانيا . فلا يحشر الجميع فى نظام للعمل كالقطيع . ولا يكون عمل الفرد فى المصنع أو فى أى مكان ، بديلا عن عمل الآلة ، المتماثلة الغُرَز والطرقات .

وحين تحترم خصائص الإنسان العامة ، وخصائص الأفراد الذاتية ، فلن يتعذر على المهندسين والمديرين إيجاد طرائق العمل الفنية التى تحافظ على هذه الخصائص وتلك ، ولن يتعذر على « التكنولوجيا » أن تضمن الإنتاج الكبير وتضمن فى الوقت ذاته المحافظة

على هـذه الخصائص وتلك ، فـلا تسحق « الإنسان » ولا تسحق « الفرد » فى عمـل أو نظام .

وهو « إنسان » من ذكر وأنثى . . من نفس واحدة ، نعم . . ولـكنهما جنسان . ومنهجنا يعرف هذه الحقيقة بشطريها ، ويـكفل لشطرى النفس الواحدة حقوقا واحدة ـ فيما يتعلق بالأصل الإنسانى العام ـ ولـكنه فى الوقت ذاته يفرض على كل منهما واجبات مختلفة ، وفق الوظيفة الخاصة فى العمران ، ووفق طاقة كل منهما ومجموعة تـكاليفه ، فلا يـكلف المرأة المسكينة مثـلا أن تحمل وترضع وتربى ، وفى الوقت ذاته تعمل وتـكدح وتشقى . . بينما الرجل لا يشاركها الحمـل والرضاع والتربية . ثم يزعم بعد ذلك أنه ينصف المرأة ويحترمها ويرقيها ! ولا يـكلف المرأة أن تهمل صناعة « الإنسان » لتشتغل بصناعة « الأشياء » . فالإنسان فى منهجنا أغلى من الأشياء . ولا يجوز فيه أن تشتغل المرأة المثقفة المـاهرة الحـكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها ؛ وأن تستجلب لأبنائها امرأة أخرى أقل ثقافة ومهارة وحكمة ، وأرخص أجرا بالطبع ، لتشرف لها على « الأبناء » بينما هى تشرف على « الأشياء » !

وهـكذا ـ وفى ظل هـذا المنهج ، ومن نقطته السـابقة فى البدء ـ يصبح المزيد من علوم الإنسان ذا قيمة فى موضعـه المناسب ، فى مرحلة من مراحل الطريق . لا من بدء الطريق .

* * *

ومنهجنا لا يجد نفسه ـ بعد ذلك ـ فى مشكلة أمام الصناعة والحضارة الصناعية . . إن هذا المنهج لا يرفض الحضارة الصناعية ولا يحفل منها ، ولا يتنـكر لها . . إنها

ـ ابتداء ـ وليدة اتجاهه المبكر إلى « العلم التجريبي » ، هذا الاتجاه الذى انتقل إلى أوربا عن طريق جامعات الأندلس وعلم المشرق ـ كما يقرر بريفولت ودوهرنج وجب وغيرهم ممن لا يملكون إنكار الحقائق التاريخية ـ وهذا الاتجاه هو أصلا وليد نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان ، ودور الإنسان فى هذه الأرض . ووليد طبيعة المنهج الإسلامى فى النظر إلى واقعيات » الكون ، وتدبرها والانتفاع بها . وهو اتجاه مخالف تماما لاتجاه الفلسفة الإغريقية التجريدية ، التى ورثتها العقلية الأوربية ؛ ومخالف كذلك للتصورات الكنسية ، التى كانت تجعل علوم الكون المادى « تصورات مقدسة ثابتة » بينما الإسلام يطلق العقل البشرى ـ فى هذا المجال ـ ليبحث ، ويجمع الشواهد ، ويتتبع الظواهر ، وينشىء القوانين ، ويتحرى وسائل استخدامها وتسخيرها فى عالم الواقع . ويخطئ ويصيب بلا تجريم ولا تأثيم .

وإذن فإن هذا المنهج لن يرفض الحضارة الصناعية ، لأنها وليدة طرائقه المنهجية ، التى انتقلت إلى أوربا ، فرفضتها الكنيسة وشنت عليها حربا شعواء قاسية ، انتهت بهزيمة الكنيسة ، وانتهت ـ مع الأسف ـ بهزيمة الدين كله لارتباطه فى أوربا بالكنيسة . .

إن القاعدة التى يقوم عليها بناء الحضارة الحديثة ـ من الناحية العلمية ـ ليست غريبة علينا . بل هى ابتداء من عندنا ـ كما رأينا ـ ومنهجنا ينظر إلى نتاج الحضارة ـ من الناحية العلمية ـ نظرته إلى أمانة ردت إليه ، وساهم هو فى نشأتها مساهمة أساسية قبل خمسمئة عام . وبينه وبينها صلح قديم من حيث إن طبيعة المنهج الإسلامى التى تنفر من الفلسفة النظرية المجردة ـ على طريقة الإغريق ـ وتتجه إلى « المثالية الواقعية »أو « الواقعية المثالية » كانت هى الحافز الأول لهذا الاتجاه العلمى التجريبى الذى لم تكن جذوره فى أوربا . لا من الحضارة الإغريقية ولا من الحضارة الرومانية ، ولا من التصورات الكنسية .

هذه التصورات التى لم تكن سوى خليط من النصرانية السمحاء التى جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ والوثنية المخرفة التى أدخلها فيها قسطنطين وكبار رجال الدولة الرومانية حين دخلوا فى النصرانية ، وزاد طينتها بلة التصورات الكنسية عن الآراء العلمية الخاطئه التى كانت رائجة فى زمانها ، وتبنتها الكنيسة ، واعتبرتها آراء مقدسة عن الكون المادى والحياة .

إنما الذى يرفضه منهجنا ويشتد فى رفضه ، من هذه الحضارة ، هو شىء آخر غير الأساس العلمى التجريبى الذى تقوم عليه . .

إنه سيرفض المذهب المادى (الوضعى أو الحسى) الذى يجعل المادة هى الوجود ـ ولا شىء غير المادة ـ وقد تحطمت هذه النظرية « علميا » أو تكاد والحمد لله . والذى يجعل « الإنسان » تابعا للمادة يتلقى منها فقط ، ويتكون من انطباعاتها ـ وحدها ـ عقله وتفكيره وتصوراته ، كما يتكون جسمه سواء ، مع اعتباره سلبيا تجاه المادة سلبية مطلقة (كومت وزملاؤه) . . والذى يجعل تطورات التاريخ فى معزل عن إيجابية الإنسان ، ويردها فقط إلى أدوات الإنتاج (كارل ماركس وزملاؤه) .

كما سيرفض كذلك النظرة الحيوانية للإنسان التى أطلقها « دارون » والنظرة القذرة إلى دوافع الإنسان ، وحصرها فى وحل الجنس كما يزعم « فرويد » وهو يدرس « الشواذ » ويجعلهم هم « الإنسان » . . .

كذلك سيرفض منهجنا ما ترتب على هذه النظرات كلها من إقامة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإقامة نظام العمل وطرائق الإنتاج الفنية على أساس إهدار آدمية الإنسان ، وخصائصه الإنسانية العامة أولا ، وخصائصه الذاتية الفردية ثانيا ، وخصائص جنسيه المتميزين ثالثا ؛ واعتباره ترسا فى الآلة ، أو بهيمة فى القطيع . والاهتمام

فقط بمضاعفة الإنتاج ، و بتوفير وسائل إشباع الضرورات الجسدية ـ فحسب ـ مع إهدار أشواق الإنسان وحاجاته الأخرى فى نظام الحضارة (كما يقرر الدكتور كاريل) من حبه للجمال والفن ونشاطه الأدبى والدينى . . (غير أن تصور منهجنا للنشاط الدينى لن يكون فى تلك الحدود الضيقة التى لا يعرف الدكتور كاريل سواها . بل سيكون معناه ـ كما قلنا ـ أن يكون الدين هو منهج الحياة الكلى ، الذى تتحرك فى إطاره ، وتنمو بكل أنواع النشاط الإنسانى . ومنه العمل والإنتاج والسياسة والاقتصاد ، والخلق والسلوك . والصلاة و الدعاء ، والاتصال بالملأ الأعلى والاتصال بالآلة والإنتاج سواء) .

وسيستدعى هـذا تعديلا فى طرق الإنتاج الفنية « بحيث توائم بين الرغبة فى مضاعفة الإنتاج والإبقاء على خصائص « الإنسان » العامة ، وخصائص الفرد الذاتية . وتعديل أوضاع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بحيث توائم كذلك بين استقرار الحياة وتوازنها ، والإبقاء على الخصائص « الإنسانية » و « الفردية » مع الإبقاء ـ كذلك ـ على خصائص « الجنسين » من ذكر وأنثى . .

* * *

ومنهجنا لن يجد نفسه فى مشكلة أمام الاستمتاع بالتيسيرات الحضارية التى تتيحها الحضارة المادية وفنونها المتجددة للإنسان ؛ ولاأمام الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، وكنوزالأرض ونتاجها مما تتيحه الحضارة المادية ؛ ولن يحدث نكسة إلى رهبانية روحانية كالتى ابتدعتها الكنيسة فى أوربا ، لمقاومة سيل المتاع على الطريقة الرومانية ، أو ـ بتعبير أصح ـ للهرب من مواجهة الحياة الدنيا .

فمنهجنا لا ينكر الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، ولا يجمّد الإبداع المادى فى الأرض ، ومن ثم لا يجمّد وسائل المتاع بهذا الإبداع . . بل أكثر من هذا ، هو يعد

ذلك جزءا من وظيفة الإنسان فى هذه الأرض . فالخلافة معناها القيام على شؤون هـذه الأرض ، واستثمار خيراتها ، واكتشاف كنوزها ، والاستمتاع بطيباتها ، فى حدود منهج الله ، مع التوجه لله بالعبادة والشكر والاعتراف على ما سخره للإنسان من طاقات فى نفسه ومن مدخرات فى هذه الأرض . وكثيرا ما من الله على عباده بما أنعم عليهم من الموارد والتيسيرات التى كانت متاحة لهم حينذاك ، وبشرهم بغيرها مما سيأتى . كما عقب على ذكر نعمة الأنعام ، وماتيسره للإنسان من متاع وراحة ومنفعة وجمال ، فقال بعد ذلك كله « ويخلق مالا تعلمون » فما من شىء طيب تنتجه الحضارة المادية ، إلا ومنهجنا يعتبر حقا للإنسان أن يستمتع به فى حلال ..

ولكن هـذا المنهج يرفض أن يستمتع الإنسان بخيرات الأرض ونتاج الحضارة كما يستمتع الحيوان . يرفض أن يكون الإنسان عبدا للذائذه ، مقهورا عليها قهرا لا يملك معه إرادته ، ولا يملك أن يقف عند الحد الذى يؤمن معه المتـاع ، فلا يؤدى الإفراط إلى الانحلال والدمار .. والبوار . . يرفض أن يكون المتاع فى ذاته غاية غايات الإنسان . فالإنسان أكرم من هذا وأرفع ، وغاية وجوده الإنسانى أكبر من هذا وأضخم . وهو لا يكون « إنسانا » إلا بأن يدرك غاية وجوده ، وأن يسيطر على شهواته ولذائذه وأن يقف عند الحد المأمون منها . . بإرادته . .

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »

... (محمد : ١٢)

إن المحافظة على « إنسانية الإنسان » هدف أساسى فى هذا المنهج . فهو لا يملك أن يؤدى وظيفته الفذة فى الأرض ، إلا بتكوينه هذا الفذ . فأى عامل يؤدى إلى تغيير طبيعته ، أو إتلاف خصائصه ، هو عامل مرفوض من المنهج الإسلامى .

وهكذا نملك ـ عن طريق هـذا المنهج ـ « وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التى لا تلين لوجوه نشاطنا العضوى والروحى ، وتمييز ما هو محرم ممـا هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحرارا لنعدل فى بيئتنا وفى أنفسنا تبعا لأهوائنا » . . فهذا المنهج يبين لنا هذا كله . . ولا ينتظر بنا حتى تصل « علوم الإنسان » إلى الحد الذى تجزم فيه برأى فى هـذه القضية الخطيرة ، التى يتوقف عليها بقاء « إنسانية الإنسان » ، وبقاء الحضارة فى المستوى الإنسانى .

فـكل الضروريات الأساسـية التى من هـذا النوع ، رحمنا الله من توقفها على علمنـا ـ أو حتى على إرادتنا ـ وجعلها أحيانا تتم بدون إرادة منا ، كهضم الطعام وامتصاصه ، لبقاء الحياة . . وكذلك هنا لم يدعنا نتخبط فى جهالتنا لتمييز « ماهو محرم مما هو شرعى » بل بين ذلك فى منهجه لحياتنا بيانا شافيا . وأباح لنـا الطيبات كلها ، ولم يحرم علينـا إلا أشياء قليلة ـ يعلم هو أنها تؤذينا ، سواء علمنا نحن أم لم نعلم ـ ورسم لنا الحدود التى نحتفظ فيها بإنسانيتنا وخصائصها ، مع المتـاع بطيبات الحياة وتيسيرات الحضارة فى كل زمان ...

* * *

ومنهجنا لن يجد نفسه فى مشكلة أمام مؤسسات الحضارة الاقتصادية التى يقوم بناء الحضارة الصناعية عليها لشتى مرافق الحيـاة . . (وإن كنت لا أحب أن أدخل فى تفصيلات فقهية فى هذا الموضوع . . للأسباب التى سأبديها فى الفصل التالى) .

ولـكنه سيرفض حتما الأساس الربوى الذى يقوم عليه معظم هذه المؤسسـات . سيطهرها من هذا الرجس ، ويخرج منها دود العلق ، الذى يمتص دماء الملايين . ولن يسمح بنظام يجعل حصيلة كد البشرية فى جميع أنحاء الأرض : من عمال وصناع وتجار ومديرى مصانع وأصحاب أرض وعمائر وصناعات . . كله . . يرجع إلى بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية و بنوك الإقراض فى العالم ، فهؤلاء هم الذين تـكد البشرية كلها لتؤدى لهم « فوائد »

أموالهم المتداولة فى أنحاء العالم . وهؤلاء هم الذين يوجهون الاستثمار ـ مباشرة أم غير مباشرة ـ إلى المشروعات الأكثر ربحا ـ للوفاء بفوائد الأموال ـ وهى التى تحطم خصائص البشرية وأخلاقها ومقوماتها فى الغالب . وهؤلاء هم الذين يسببون الأزمات الدورية المعروفة فى النظام الرأسمالى . وهؤلاء هم الذين تنشأ عن خططهم الجهنمية اللعينة أزمات التعطل ، والفساد الخلقى الذى يتبعه . كما تنشأ الخطط الاستعمارية ـ فى صورها المختلفة، وآخرها « استعمار الاستثمار » بعد ما فشل « استعمار الاحتلال » ـ وعشرات من النكبات العالمية الأخرى . .

ومن ثم تختفى هذه الويلات التى تعانى منها البشرية كلها ، أو تخف حدتها على الأقل . . حين يختفى النظام الربوى . .

أما المؤسسات الاقتصادية ، فلا ذنب لها فى ذاتها ، ولا ضرر منها إذا اختفى هذا العنصر الخبيث (وذلك مع الاحتفاظ بوجهة نظرى فى عدم وضع أحكام فقهية مفصلة الآن) . .

على أن طرق الإنتاج الحالية ، المؤسسة على قاعدة إنتاج أكبر قدر بأقل أجر . . والتى ينشأ عنها تحطيم خصائص الإنسان فى المعامل والمصانع ـ كما يقول دكتور كاريل ـ يرجع قسط كبير من سوآتها للنظام الربوى . من ناحية أن الأموال المستخدمة فى الاستثمار معظمها قروض ربوية . فهناك حرص شديد ـ فوق الحرص الذى تنشئه أثرة الرأسمالية وحمى المادية ـ على الربح ، الذى يفى بفوائد القروض المستثمرة ، وتفضل منه فضلة . ولو كان هذا على حساب إنسانية العامل ، وخصائص الإنسان . .

وتعديل طرائق الإنتاج ليس شيئاً مستحيلا . فالفكر الإنسانى الذى أنشأ هذه الطرائق فى ظل أنظمة رأسمالية ربوية ـ أو مادية مذلة للإنسان بصفة عامة ـ يملك أن ينشىء طرائق أخرى ، تجمع بين الغايتين كما أسلفنا . . متى رفع عنه كابوس التصورات المذلة للإنسان ، وسياط الفوائد الربوية التى تسوق الاستثمار والإنتاج فى كل مكان .

* * *

إن منهجنا هو الذى يقيم الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والتعلمية والتعليمية والتربوية المتكاملة ، التى تعيد « إنشاء الإنسان فى تمام شخصيته . الإنسان الذى أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة » . كما يريد دكتور كاريل من « علوم الإنسان » أن تفعل !

فإعادة إنشاء الإنسان لا يقدر عليها الإنسان .. إن الذى خلق الإنسان هو الذى يملك أن يعيده ، والذى أنشأه فى أحسن تقويم هو الذى يملك أن يرده إلى تقويمه ، بعد أن يكون قد هبط إلى أسفل سافلين :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . . (التين : ٤ ـ ٦)

إن الذى يحاوله دكتور كاريل والعلماء المؤمنون من أمثاله ، أو الغيورون على «الإنسان» ـ بصفة عامة ـ أكبر من طاقة الإنسان . إنهم يطلبون عمل إله وقدرة إله ، وعلم إله ، وهيهات أن ينهض البشر بما هو من خصائص الله ..

إن الإنسانية تتردى فى الهاوية . . هذا صحيح . . وتنتحر بيدها . . هذا صحيح . . وتختنق بالظروف العدائية التى أنشأها العلم حولها « الظروف التى تجعل الحياة ذاتها مستحيلة » . . هذا صحيح . .

إن خصائص الإنسان التى بها صار إنسانا ، والتى بدونها لا يملك المضى فى خلافة الأرض ، والسيادة على عناصرها .. تدمر تدميرا بشعا ، والإنسانية لا تدرى ، ولا تستمع لأصوات العقلاء الذين ينذرونها بالخطر . وإن استمعت فلا تملك أن تتوقف عن المضى إلى الهاوية ..

وهناك منهج واحد . . واحد لا يتعدد . . هو الذى يملك أن يمد إليها يده بالإنقاذ . .

وهناك طريق واحد . . واحد لا يتعدد . . هو طريق الخلاص . .

ولكن كيف يُقدَّم هذا المنهج للبشرية ؟ وكيف يُشرَع هذا الطريق ؟ ؟ ؟

ذلك فصل الختام فى هذا الكتاب . . .

طريق الخلاص

إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع . . إنما تستجيب لمنهج حى متحرك ، مجسم ، ممثل فى حياة جماعة من البشر ، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد ، وتلاحظ آثاره العقول . .

إنها تستجيب للمنهج الإسلامى فى صورة . . مجتمع إسلامى . .

وعلى كل ما لقيته البشرية من اللأواء والنصب فى هاجرة التيه المقفر الذى سارت فيه بلا دليل . .

وعلى كل ما عانته من التجارب القاسية ، والتخبط المؤلم ، وهى تنهض وتعثر ، وتنزف جروحها طوال الطريق . . !

وعلى كل ما يهدد خصائصها من الدمار ، ويهدد حياتها من البوار ، فى ظل هــذه الحضارة المادية التى أقيمت دون علم بالإنسان ، ودون مراعاة لخصائصه فى كل زمان !

وعلى كل ما يدرك العقلاء فيها من جسامة الخطر الذى يتعرض له وجودها ذاته ، وتتعرض له خصائصها الثمينة . .

على الرغم من هــذا كله ، فإنه ليس من عادة البشرية أن تستجيب لمنهج مقروء أو مسموع . . مالم يتمثل فى صورة « مجتمع » يعيش بهــذا المنهج ، ويعيش له ، وتتمثل فيه خصائصه ومزاياه . .

وألف كتاب عن الإسلام . وألف خطبة فى مسجد أو قاعة أو ميدان . وألف فيلم فى الدعاية للإسلام . وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر فى كل مكان .. كل أولئك لا يغنى غناء مجتمع صغير يقوم فى ركن من أركان الأرض ، يعيش بمنهج الإسلام ، ويعيش لمنهج الإسلام ، وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج ، وتتمثل فيه صورة الحياة فى الإسلام !

وأعداء الإسلام العالميون من الصهيونيين والصليبيين المستعمرين يعرفون هذه الحقيقة جيدا . ومن أجل معرفتهم العميقة بهـذه الحقيقة ، هم قد يسمحون بنشر الـكتب عن الإسـلام ـ فى حدود ـ و بإلقاء الخطب عن الإسـلام ـ فى حدود ـ و بعرض الأفلام عن الإسلام ـ فى ندرة ! ـ و بإرسال البعثات للإسلام ـ فى رقابة ! ـ ولـكنهم لا يسمحون أبدا ـ بما لديهم من سلطات عالمية ضخمة خافية وظاهرة ـ بقيام مجتمع إسلامى ـ ولو صغير ـ فى ركن من أركان الأرض ـ ولو فى جزيرة بالمحيط !

ذلك أنهم يعرفون أن هذه هى الوسيلة الجديّة الوحيدة « لوجود » الإسلام ! وهم قد عانوا من « وجود » الإسلام طويلا . إذ حال بينهم و بين أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية للوطن الإسلامى وللمجتمع الإسلامى .. وما صدّقوا أن أجهزوا ـ كما يتصورون ـ على هذا الجبار . فهم يفزعون من شبحه ولا يريدون له « الوجود » الفعلى بحال من الأحوال . .

* * *

ولـكن المجتمع الإسلامى ـ مع هـذا كله ـ هو طريق الخلاص الوحيد للبشرية المهددة بالدمار والبوار . .

إنه الاستجابة الوحيدة لنداء الفطرة فى ساعة العسرة . والفطرة فى ساعة الخطر تتنبه وتعمل ، مهما تـكن فى خمار أو دوار !

إنه ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية .. ومن ثم فإن الدوافع لبروزه أقوى من كل قوة معوّقة . أقوى من الصهيونية الماكرة والصليبية المستعمرة . وأقوى من الأجهزة المسلطة فى كل زاوية من زوايا الأرض .. وأقوى كذلك من جهل أهل الإسلام بالإسلام ؛ وبلادتهم وانغمارهم فى التيار الجارف العام !

إنه لا مفر من قيام هذا المجتمع . . المجتمع الإسلامى . .

إنه إن لم يقم اليوم فسيقوم غدا . وإن لم يقم هنا فسيقوم هناك . . ولا نريد أن نتنبأ عن مكان أو زمان، فنحن ـ البشر ـ تقف تقديراتنا دائما عند ستر الغيب المسدل ، الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .

* * *

إلا أن الذى ينبغى أن يقال . . هو التحذير من وقع هذه الكلمات ! التحذير من الأمل العريض الذى قد تنشئه فى بعض الصدور !

إن حتمية قيام هذا المجتمع بوصفه ضرورة إنسانية لإنقاذ الإنسانية . وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الإلهى الذى لا بد غالب . .

إن هـذه الحتمية ليس معناها ، أن الطريق إليه نزهة مريحة ؛ ولا أنه هناك على قيد خطوات . .

كلا إن حتمية الميلاد لا تغنى من آلام المخاض !

والطريق إلى المجتمع الإسلامى طويل وشاق . . ومليء بالأشواك . وأعسر ما فى هذا الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا ، وبأفكارنا ، و بأخلاقنا ، و بسلوكنا ـ ثم بواقعنا الحضارى المادى ـ إلى مستوى الإسلام .

ولكنه ـ بعد هذا كله ـ ضرورة إنسانية . وحتمية فطرية . ولا بد له من ميلاد . ولابد للميلاد من مخاض . ولا بد للمخاض من آلام !

* * *

ولا بد من معرفة ملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية بوجه عام ، ولابد من تصور طريقة مواجهته للحضارة القائمة ومنشآتها القائمة ومؤسساتها العاملة . وأوضاعها هنا وهناك .

ولكن متى ينبغى بيان هذا وذاك ؟

فأما المعرفة العامة لملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية فنعتقد أنها ضرورية منذ الآن، وقد أشرنا إلى بعضها فى ثنايا فصول هذا الكتاب . .

وفى حدود جهدى الخاص : لقد أعددت لهذا بحثا ضخما مفصلا تحت عنوان : « نحو مجتمع إسلامى » و بحثا آخر عن « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وكلاهما يكمل الآخر فى هذا المجال .

وأما معرفة كيف يواجه المجتمع الإسلامى الحياة الحاضرة ، وكيف يتصرف فى أوضاعها القائمة ـ وعلى الأخص صياغة هذا فى قالب فقهى مقنن ـ فهذا ما أعتقد أن كل كلام فيه ـ فى غير الإطار العام ـ سابق لأوانه . . بل أشبه شىء باستنبات البذور فى الهواء !

إن محاولة وضع أحكام تشريعية فقهية إسلامية لمواجهة أقضية المجتمع الذى تعيش فيه البشرية ، والذى ليس إسلاميا ، لأنه لا يعترف بأن الإسلام منهجه ، ولا يسلم للإسلام أن يكون شريعته . .

إن محاولة وضع أحكام تشريعية لأقضية مثل هذا المجتمع ، ليست من الجد فى شىء . وليست من روح الإسلام الجادة فى شىء . وليست من منهج الإسلام الواقعى فى شىء . .

إن الفقه الإسلامى لا يستطيع أن ينمو ويتطور ويواجه مشكلات الحياة إلا فى مجتمع إسلامى ! مجتمع إسلامى واقعى ، موجود فعلا ، يواجه مشكلات الحياة التى أمامه ، ويتعامل معها ، وهو مستسلم ابتداء للإسلام !

إنه عبث مضحك أن نحاول مثلا إيجاد أحكام فقهية إسلامية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى أمريكا أو روسيا ، فأمريكا أو روسيا كلتاهما لا تعترف ابتداء بحاكمية الإسلام !

وكذلك الحال بالنسبة لأى بلد لا يعترف بحاكمية الإسلام !

وكل فقه تراد تنميته وتطويره فى وضع لا يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام ، هو عملية استنبات للبذور فى الهواء .. هو عبث لا يليق بجدية الإسلام !

إن مشكلات « المجتمع الإسلامى » فى مواجهة الحضارة القائمة ، ليست هى مشكلات

أى مجتمع آخر . إنها ليست مشكلات جاهزة حتى نهيئ لها حلولا جاهزة .. إنها مشكلات ستنشأ بشكل خاص ، وبحجم خاص ، وفق ظروف فى عالم الغيب ، ووفق ملابسات لا يمكن التكهن بها الآن .. فمن العبث الجرى وراء افتراضات لم تقع بعد ، على طريقة « الأرأيتيين » (١) التى يمجها الجادون من مشرعى وفقهاء الإسلام ..

كما أن مشكلات المجتمع الحاضر فى مواجهة الحضارة القائمة ليست مشكلات « مجتمع إسلامى » .. فهذا المجتمع الإسلامى لم يوجد بعد ـ منذ أن اتخذت شرائع غير شريعة الإسلام لتصريف الحياة ـ لم يوجد ، حتى تكون هذه مشكلاته . والإسلام ليس مطلوبا منه ـ ولا مقبولا منه كذلك ـ أن يوجد حلولا فقهية لمجتمع غير إسلامى .. مجتمع أنشأ مشكلاته هذه بسبب أنه لم يعرف الإسلام ؛ أو بسبب أنه هجر الإسلام ، إن كان قد عرفه من قبل ..

ففيم الجهد ؟ وفيم العناء ؟

إنه ليس الذى ينقص البشرية لقيام مجتمع إسلامى هو وجود فقه إسلامى « متطور » ! إنما الذى ينقصها ابتداء هو اتخاذ الإسلام منهجا وشريعته شريعة . إن الفقه الإسلامى لكى يتطور ، ينبغى أن يجد التربة التى يتطور فيها. والتربة التى يتطور فيها الفقه الإسلامى هى « مجتمع إسلامى » يعيش فى العصر الحاضر ، بدرجته الحضارية ، ويواجه مشكلات قائمة بالفعل ، بتكوينه الذاتى .. ومواجهة المجتمع الإسلامى لهذه المشكلات ، لن تكون كمواجهة أى مجتمع آخر لها بطبيعة الحال ..

ولكن هذه البديهية ـ فيما يبدو ـ لا تبدو واضحة للكثيرين من المخلصين الغيورين على الإسلام « العقلاء » !

ومن أجل ذلك نكرر ونعيد ونزيد فى الإيضاح ..

---

(١) الذين يسألون : أرأيت لو أن كذا وقع .. فما يكون الحكم ؟...

إن كل مايمكن قوله إجمالا عن المجتمع الإسلامى . . أنه ليس صورة تاريخية محددة الحجم والشكل والوضع . . وأننا فى العصر الحديث لا نستهدف إقامة مجتمع من هذا الطراز ، من حيث الحجم والشكل والوضع، إنما نستهدف إقامة مجتمع مكافئ من النواحى الحضارية المادية ـ على الأقل ـ للمجتمع الحاضر . وفى الوقت ذاته له روح ووجهة وحقيقة المجتمع الإسلامى الأول ، الذى أنشأه المنهج الربانى . باعتباره قمة سامقة فى روحه ووجهته وحقيقته الإيمانية وتصوره للحياة ، ولغاية الوجود الإنسانى ، ولمركز الإنسان فى هذا الكون ، ولخصائصه وحقوقه وواجباته . وقمة سامقة فى تناسقه وتماسكه .. أما الشكل والصورة والأوضاع فتتحدد وتتجدد بتطور الزمن ، وبروز الحاجات ، واختلاف أوجه النشاط الواقعى . . . إلى آخر الملابسات . . الملابسات المتغيرة المتحركة . . ولكن التى ينبغى أن يكون تحركها ـ فى المجتمع الإسلامى ـ داخل إطار المنهج الإسلامى، وحول محوره الثابت، وعلى أساس الإقرار بألوهية الله وحده ، وإفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية دون شريك . وأولى هذه الخصائص هى حق الحاكمية والتشريع للعباد ، وتطويعهم لهذا التشريع .

ومن ثم فإنه ليس « الفقه » الإسلامى هو الذى نتقيد به فى إنشاء هذا المجتمع ـ وإن كنا نستأنس به ـ إنما هو « الشريعة » الإسلامية والمنهج الإسلامى، والتصور الإسلامى العام .

وهذا يتطلب ابتداء ، أن ترتضى جماعة من البشر اتخاذ الإسلام منهج حياة ، وتحكيمه فى كل شأن من شؤون هذه الحياة ـ أى إفراد الله ، سبحانه ، بالألوهية والربوبية ، فى صورة إفراده ، سبحانه ، بالحاكمية التشريعية ـ ولحظتئذ ـ لا قبلها ـ يوجد « المجتمع الإسلامى » . . ويبدأ فى مواجهة الحياة القائمة ، بينما هو يكيف نفسه ، وأوضاعه وحاجاته الحقيقية ، ووسائل إشباع هذه الحاجات ، متأثرا بعقيدته ، وما تنشئه من تصورات خاصة ، ومتأثرا بأهدافه ، وما تعيّنه من وسائل خاصة ، ومتأثرا بطريقته المنهجية الخاصة فى مواجهة الواقع ، والاعتراف بما هو فطرى من هذا الواقع ، وما هو ضرورى لنمو الحياة السليمة ، مع رفض ماليس فطريا ولا ضروريا للنمو ، وما هو ضار ومعطل وساحق لهذا

النمو ، من ذلك الواقع .. وفى خلال هذه المواجهة ـ بكل هذه الملابسات ـ ينشىء أحكامه الفقهية الخاصة ، أولا بأول ، فى مواجهة وضعه الخاص . .

وهنا .. قد يخدم هذا المجتمع الناشىء ماحسبناه وما نزال نحسبه سوء حظ فى انقطاع نمو الفقه الإسلامى !

قد تكون هذه خدمة يسرها الله لحكمة ..

ذلك أن المجتمع الوليد سيتجه حينئذ مباشرة إلى شريعة الله الأصيلة . لا إلى آراء الرجال فى الفقه . لأنه لن يجد فى آراء الرجال ـ وهى مفصلة لعصور خاصة ولظروف خاصة ـ مايساوى قده ، إلا بعمليات ترقيع وتعديل ..

وعندئذ يعمد إلى القماش الأصلى الطويل العريض .. (الشريعة) .. ليفصل منه ثوبا جديدا كاملا ، بدلا من الترقيع والتعديل !

إن هذه ليست دعوة لإهمال الفقه الإسلامى ، و إهدار الجهود الضخمة العظيمة التى بذلها الأئمة الكبار . والتى تحوى من أصول الصناعة التشريعية ، ومن نتاج الأحكام الأصيلة ، ما يفوق ـ فى نواح كثيرة ـ كل ما أنتجه المشرعون فى أنحاء العالم .

ولكنها فقط بيان للمنهج الذى قد يأخذ به المجتمع الإسلامى الذى ينشأ ـ عندما ينشأ ـ و بيان لطبيعة المنهج الإسلامى فى إنشاء الأحكام الفقهية . إنشائها فى مواجهة الواقع الفعلى للمجتمع الإسلامى . المجتمع الذى يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام .

إن تلك الثروة الضخمة من الفقه الإسلامى ، قد ولدت ونشأت ، يوما بعد يوم ، فى مجتمع إسلامى يواجه الحياة بعقيدته الإسلامية ومنهجه الإسلامى ، و يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام له ، ولا يعترف بحاكمية منهج آخر غير الإسلام ـ مهما يكن فى سلوكه أحيانا من مجافاة جزئية للإسلام . ولكن الخطأ فى السلوك والانحراف فى التطبيق شىء ، وعدم الاعتراف ابتداء بحاكمية المنهج الإسلامى كله شىء آخر . . الأول يقع فى المجتمع الإسلامى

ويظل مع ذلك مجتمعا إسلاميا ، يصح أن ينمو فيه الفقه الإسلامى ويتطور . والثانى لا يقع إلا فى مجتمع غير إسلامى . مجتمع لا يصلح بيئة لنمو الفقه الإسلامى وتطوره ، لأنه مجتمع جاهلى لا علاقة له بالإسلام ، مهما ادعى لنفسه صفة الإسلام !

وشيء آخر ..

إن الفقه الإسلامى ليس منفصلا عن الشريعة الإسلامية . والشريعة الإسلامية ليست منفصلة عن العقيدة الإسلامية . والفقه والشريعة والعقيدة ونظام الحياة كل لا يتجزأ فى التصور الإسلامى .. ومحال أن يكون هنالك إسلام ولا مسلمون ولا مجتمع مسلم ، إذا تمزق هذا الكل الموحد مزقا وأجزاء !

وفى أى نظام اجتماعى آخر - غير النظام الإسلامى - تكفى المعرفة بأصول التشريع وطرق الصناعة الفقهية ليصبح للرجل القدرة على وضع الأحكام القانونية ..

أما فى النظام الإسلامى فإن مجرد المعرفة بأصول الصناعة لا يكفى . فلابد من أمرين :

١ - مزاولة العقيدة والمنهج فى الحياة العامة للأمة .

٢ - مزاولة العقيدة والمنهج كذلك فى الحياة الخاصة للمشرّع !

وهذا ما يجب أن نعرفه ، ونحذر من مخالفته ونحن نحاول - الآن - تنمية الفقه الإسلامى وتطويره . هذه المحاولات التى تبذلها جمهرة مخلصة من رجال الفقه والشريعة فى شتى أنحاء الوطن الإسلامى ممن يريدون أو يشيرون بتنمية الفقه الإسلامى وتطويره ، لمواجهة الأوضاع والأنظمة والمؤسسات والحاجات القائمة فى المجتمعات الحاضرة .

إنهم - مع احترامى الكبير لهم والتجاوب مع شعورهم المخلص ورغبتهم المشكورة ، وتقديرى للجهد الناصب الذى يبذلونه - يحاولون استنبات البذور فى الهواء .. وإلا فأين هو « المجتمع الإسلامى » ، الذى يستنبطون له أحكاما فقهية إسلامية يواجه بها مشكلاته ؟

المجتمع الإسلامى هو الذى يتخذ المنهج الإسلامى كله منهجا لحياته كلها . ويحكم الإسلام كله فى حياته كلها ، ويتطلب عنده حلولا لمشكلاته . مستسلما ابتداء لأحكام الإسلام . ليست له خيرة بعد قضاء الله ..

فأين هو هذا المجتمع اليوم ؟ أين هو ؟ فى أى زاوية من زوايا الأرض ؟

إن كل حكم فقهى يوضع الآن لمواجهة مشكلة قائمة فى المجتمعات التى ليست إسلامية ، لن يكون هو الذى يصلح ويواجه الواقع فى مجتمع إسلامى . لأن هذه المشكلة ذاتها قد لا تقوم أصلا فى المجتمع الإسلامى حين يقوم . وإذا قامت فلن تكون هى بحجمها وشكلها ، ولن تكون طريقة المجتمع فى مواجهتها - وهو إسلامى - هى طريقته فى مواجهتها وهو غير إسلامى ؛ ولأن عوامل شتى ، وملابسات شتى ، تجعل طبيعة المجتمع الإسلامى وطريقته فى مواجهة الحياة والمشكلات غير طبيعة وطريقة المجتمعات غير الإسلامية .

هذه بديهية .. فيما أظن ..

إن أبا بكر وعمر وعليا . وابن عمر وابن عباس . ومالكا وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل والشافعى .. وأبا يوسف ومحمدا والقرافى والشاطبى . . وابن تيمية وابن قيم الجوزية والعز بن عبد السلام وأمثالهم (عليهم رضوان الله) . . كانوا - وهم يستنبطون الأحكام - :

أولا : يعيشون فى مجتمع إسلامى يحكّم الإسلام وحده فى شؤونه ، ويتخذ الإسلام وحده منهجا لحياته - حتى مع بعض المخالفة الجزئية فى بعض العصور - ويواجهون الحياة بهذا المنهج وبآثاره فى نفوسهم .

ثانيا : يزاولون العقيدة الإسلامية والمنهج الإسلامى فى حياتهم الخاصة ، وفى إطار المجتمع الإسلامى الذى يعيشون فيه . ويتذوقون المشكلات ويبحثون عن حلولها بالحس الإسلامى ..

ومن ثم كانوا مستوفين للشرطين الأساسيين لنشأة فقه إسلامى ، وتطوره ليواجه الأحوال المتطورة . فوق استيفائهم طبعا لشروط الاجتهاد ، والتى لا مجال هنا ولا داعى لبيانها لأنها بديهية !

فأما الآن .. فماذا ؟؟

إنه لابد أن نحسب حساب عوامل كثيرة ، تبعد نمو الفقه الإسلامى وتطوره الآن عن منهجه الأصيل .

لا بد أن نحسب بعد الواقع العملى ، والواقع النفسى والعقلى ، والواقع الشعورى والاعتقادى ، عن جو الإسلام والحياة الإسلامية ..

ولا بد أن نتذكر أن المشكلات التى تواجهها مجتمعاتنا ليست مشكلات مجتمع إسلامى ، حتى نستنبط لها أحكاما فقهية إسلامية !

ولابد أن نحسب حساب الهزيمة العقلية والروحية أمام الحضارة الغربية ، وأمام الأوضاع الواقعية .. والإسلام يواجه « الواقع » دائما . ولكن لا ليخضع له ، بل ليخضعه لتصوراته هو ، ومنهجه هو ، وأحكامه هو ، وليستبقى منه ما هو فطرى وضرورى من النمو الطبيعى ، وليجتث منه ما هو طفيلى وما هو فضولى ، وما هو مفسد .. ولو كان حجمه ما كان.. هكذا فعل يوم واجه جاهلية البشرية ، وهكذا يفعل حين يواجه الجاهلية فى أى زمان .

إن أولى بوادر الهزيمة هى اعتبار «الواقع» أيا كان حجمه هو الأصل الذى على شريعة الله أن تلاحقه ! بينما الإسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هى الأصل الذى ينبغى أن يفىء الناس إليه ، وأن يتعدل الواقع ليوافقه . وقد واجه الإسلام المجتمع الجاهلى ـ العالمى ـ يوم جاء ، فعدله وفق منهجه الخاص ؛ ثم دفع به إلى الأمام .

وموقف الإسلام لا يتغير اليوم حين يواجه المجتمع الجاهلي ـ العالمي ـ الحديث . إنه يعدله وفق منهجه . ثم يدفع به إلى الإمام .

وفرق بين الاعتبارين بعيد . فرق بين اعتبار « الواقع » الجاهلي هو الأصل . و بين اعتبار المنهج الرباني هو الأصل ..

إنني أنكر وأستنكر استفتاء الإسلام اليوم في أية مشكلة من مشكلات هذه المجتمعات . احتراماً للإسلام وجديته .. و إلا فأي هزء واستخفاف أشد من أن تجيء لقاض تطلب حكمه ، وأنت تخرج له لسانك . وتعلنه ابتداء أنك لا تعترف به قاضيا ، ولا تعترف له بسلطان . وأنك لن تتقيد بحكمه إلا إذا وافق هواك ! و إلا إذا أقرك على ما تهواه !

إن الإسلام لا علاقة له بما يجري في الأرض كلها اليوم ؛ لأن أحدا لا يحكّم الإسلام في حياته ، ولا يتخذ المنهج الإسلامي منهجا لمجتمعه . ولأن أحدا لا يحكم بشريعة الله وحدها ، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ، ولا يجعل الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون الحياة كلها لله ولشريعة الله .

والذين يستفتون ـ بحسن نية أو بسوء نية ـ هازلون ! والذين يردون على هذه الاستفتاءات ـ بحسن نيـة أو بسوء نية ـ والذين يتحدثون عن مكان أي وضع من أوضاع البشرية الحاضرة من الإسلام ونظامه ، أشد هزلا .. وإن كنت أعلم عن الكثيرين منهم أنهم لا يعنون الهزل ولا يستسيغونه ـ لو فطنوا إليه في شأن الإسلام ! إنما يستفتى الإسلام في الأمر حين يكون الإسلام وحده هو منهج الحياة . ذلك عند قيام المجتمع الإسلامي . المجتمع الذي يتخذ الإسلام شريعته ولا تكون له شريعة سواه ـ عندما يأذن الله و يشاء .

وثقتنا في رحمة الله بالبشرية تجعلنا نرجو دائما أنه ـ سبحانه ـ سيأذن بهذا و يشاء ..

فقيام هـذا المجتمع ـ كما قلنا وكما نكرر ـ ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ، وتلبية لنداء الفطرة في ساعة العسرة ..

وإن كانت حتمية الميلاد لا تغنى شيئا عن آلام المخاض ..

* * *

ولكن كيف ؟ وهذا الواقع البشرى الضخم يواجه الإسلام ؟

على الذين يسألون هذا السؤال أن يتذكروا كيف وقع هذا الأمر أول مرة ! .

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ؛ ويقول لها — كما أمر — : إنها فى جاهلية ، وإن الهدى هدى الله ..

ثم تحول التاريخ.. تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة فى قلب ذلك الرجل الواحد. تحول على النحو الذى يعرفه الأصدقاء والأعداء !

هذه الحقيقة التى استقرت فى قلب ذلك الرجل الواحد ، ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى .. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت إلى جاهليتها !

وهذا هو الأمر فى اختصار وإجمال ..

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة فى قلب . . فى عدة قلوب . . فى قلوب العصبة المؤمنة.. ثم تمضى القافلة فى الطريق .. فى الطريق الطويل .. الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة — فيما عدا بعض الاستثناءات — ثم تصل القافلة فى نهاية الطريق الطويل الشائك .. كما وصلت القافلة الأولى ..

لست أزعم أنها مسألة هينة .ولا أنها معركة قصيرة..ولكنها مضمونة النتيجة.. كل شىء يؤيدها .. كل شىء حقيقى ، وفطرى ، فى طبيعة الكون ، وفى طبيعة الإنسان..ويعارضها ركام كثير . ويقف فى طريقها واقع بشرى ضخم . ولكنه غثاء ! ضخم نعم .. ولكنه غثاء !

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .



الفهرس

الموضوع | الصفحة

مطابع الشروق ـ بيروت ـ ص. ب. ٨٠٦٤ ـ ت ٣١٥٨٥٩ ـ برقيا : داشروق

